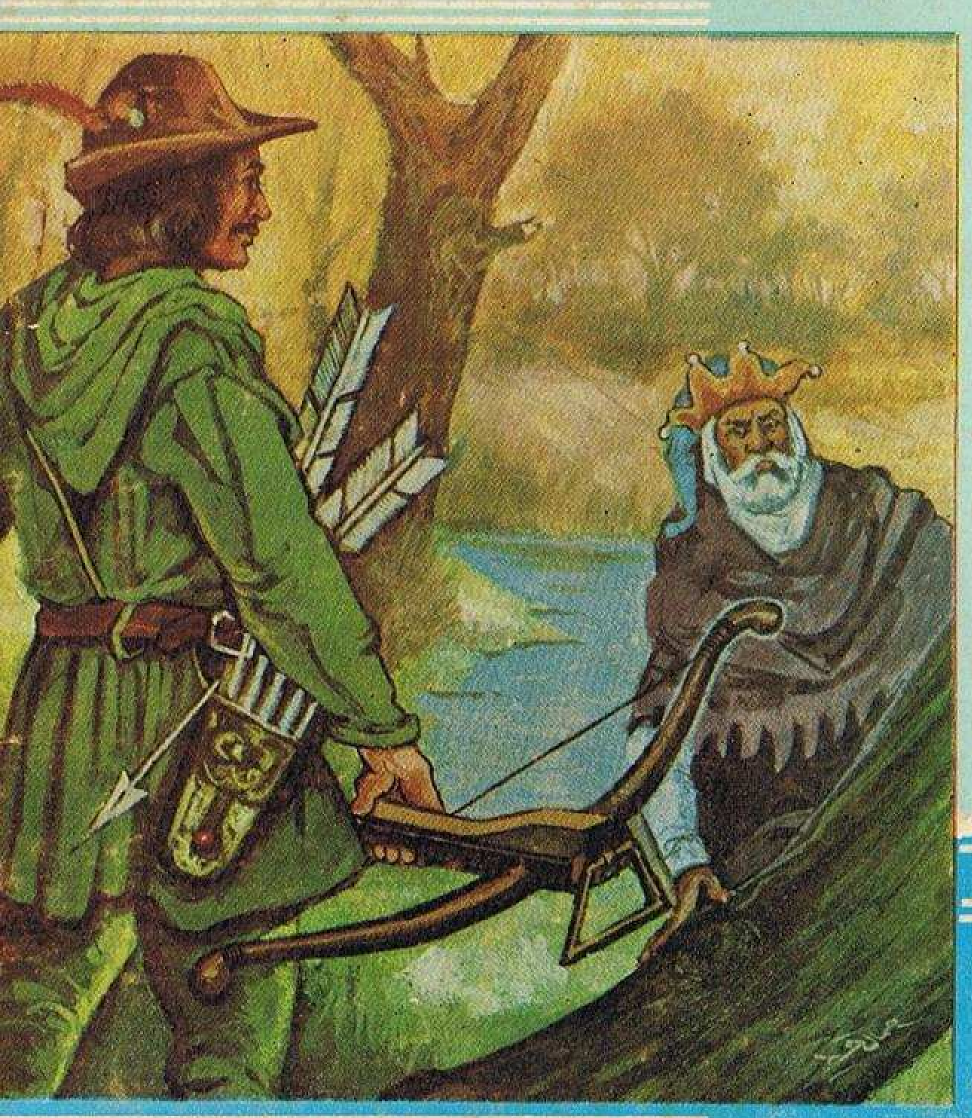
المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات





دار العلم للملايين
بيروت

ايفنهو

دار العلم للملايين

هذه الرواية

- قصة الحرب والفروسية والمغامرة .
- جرت حوادثها حوالى العام ١١٩٣ – ١١٩٤ اثناء غياب ريتشارد قلب الاسد ، ملك انكلترا ، عن بلاده ، خلال الحروب الصليبية .
- اروع ما خطته يراعة الكاتب الانكليزي والتر سكوت من روايات تاريخية مشوقة وحابسة للانفاس .

الثمن : ٣ ق.

المكتبة العالميّة
للفتيان والفتيات



تأليف
وولتر سكوت

تعريب وتلخيص
أكرم الرافعي

دار العلم للملايين
بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥

١ . ظلم وفوضى

بينَ شيفيلد ومدينة دونكاستر الجميلة كانت تمتدّ ، في القديم ، غابةٌ كثيفةٌ أخفتْ بين أشجارِها نفراً من المُبْعَدين الشّجعان ، الذين حفِظَتْ لنا ذكراهم بعض الأغاني الشعبية .

وتدورُ حوادثُ هذه القصةِ خلالَ السنوات الأخيرةِ من حُكم الملك ريتشارد ، الذي كانت رعيّتُهُ تتمنّى عودتَهُ ، وهي متأرجحةٌ بين اليأس والرجاء ، كي يضعَ حدّاً للفوضى والاستبدادِ اللذَيْن كانت انكلترة برُمّتِها تعاني منهما الأمرّيْن . فلقد عمَدَ الأشرافُ الذين كان يملأُ نفوسَهُمُ الصّلَف ، إلى تحصينِ قلاعِهِم واستعبادِ الضّعَفاءِ من جيرانهم والاستعدادِ للقيامِ بأدوارِهم في الحرب الأهلية التي سعَوا إلى إضرام نارها ، غيرَ آبهينَ بمجلس الوصاية .

على أنّ طبقةَ النبلاء الصغار كانت ، على العكس من ذلك ، في حالةٍ سيئة . وكان أعضاءُ هذه الطبقة ،

ويُطْلَق عليهم اسمُ « فرانكلن » ، يُضْطَرّونَ ، من
أجلِ المحافظة على سلامتهم ، إلى طلب الحماية من سيّد
مجاورٍ يتحتّمُ عليهم أن يساعدوه في كافّة عمليّاته ،
وبذلك يجدونَ أنفسَهم مُورّطين في مغامرات بالغة الخطر .
ولم يكن جيرانُهُمُ الأقوياءُ يَعْدمونَ وسيلةٍ للكَيْدِ لهم
والضغطِ عليهم وإنزالِ الخراب بهم .

ولم يكن لمجيء وليم الفاتح إلى انكلترة من أثرٍ سوى
مضاعفَةَ الظلمِ الذي يمارسه النبلاء البارونات الكبار ،
والشقاءِ الذي تعانيه الطبقاتُ الدّنيا . فبعد حرب « هاستنغز »
انتقلت السلطةُ برُمّتها إلى أيدي النبلاء النورمانديين ،
أما أمراء وأشراف « الساكسون » . فقد أُبيدَ أكثرُهُمْ
وجُرّد الباقون من ممتلكاتهم ، ولم يحتفِظْ منهم سوى
عدد ضئيل ببعض أملاكٍ من الدرجةِ الثانية أو الثالثة ،
في أرضِ أجدادِهم . ولقد كانت سياسةُ وليم وخلفائه
هي إضعافَ هذه الطبقة ، بكافّةِ الوسائلِ ، خوفَ
أن يُغَذّوا الحِقْدَ ضدّ الغزاةِ الفاتحين .

وكانت اللغةُ الفرنسية هي السائدةَ في البَلاط والقصور ،
والمستخدَمةَ في المحاكم . أما اللسانُ الانكلوسكسونيّ
فقد تُركَ للفلاحين والطبقاتِ الشعبيةِ الدنيا . على أن
ضرورةَ التفاهمِ بين الرؤساء والمرؤوسين ، بين السادة
والعبيد ــ أدّتْ إلى ظهورِ لهجةٍ جديدةٍ هي عبارةٌ عن

مزيجٍ من الكلمات الفرنسيةِ والألفاظ الأنكلوسكسونية .
وقد اغتنَتْ هذه اللهجةُ بما دخلَ عليها من اللغة اللاتينية
ولغاتِ أوربا الجنوبية ، فتألّفت منها اللغةُ الانكليزيةُ الحديثة .

كانتْ أشعّةُ الشمسِ الغاربةِ تَنْشُرُ ذَهَبَها على
ظاهر هذه الغابة ، التي تحدّثْنا عنها ، والتي يغلبُ على
الظنّ أن أشجارَها القديمةَ قد رأتْ جنودَ قَيْصَرَ يَمُرّون
تحتَها . وكان هناكَ رجلان أحدُهما تبدو على ملامحه
القَسْوةُ والعُنْف ، ويرتدي سترةً من الجلد تنحدرُ
حتى رُكْبَتَيْه ، ويَنْتَعِلُ خُفّاً يَخْرُجُ منهُ سَيْرانِ
جلديّان دقيقان يلتفّان متصالبَيْن حولَ الساق . وقد
شَدّ الرّجُلُ في وسطه مِنْطَقَةً يصِلُ بين طَرَفَيْها إبزيمٌ
نحاسيّ ، ويتدلّى منها كيسٌ صغيرٌ وقَرْنُ كَبْشٍ
وخَنْجَرٌ عريضُ الشَّفرة ، مُدَبّبُ الرّأسِ قَرْنيّ
المَقْبِض . وكان شَعْرُهُ المُضَفّر ، بلونه الأحمرِ الكامد
يتنافرُ بشكل غريب مع لحيته العَنْبَرية الصفراء . ويُكْمِلُ
هذه الزينةَ والمظهرَ قِلادةٌ نُحاسيّةٌ عريضةٌ واسعةٌ نُقِشَتْ
عليها ، بالأحرفِ السّكسونية ، هذه الكلمات : « غورث
بن بيوولف ، عَبْدُ سَدريك دي روذروود بالولادة » .

أما الرّجُلُ الآخرُ فكان يبدو أصغرَ من غورث ،
راعي الخنازير ، بنحو عَشْرِ سنوات . كان لباسُهُ
مماثلاً للباس رفيقِهِ إلاّ أنّهُ مِن صنفٍ أجودَ وبلونٍ

أزهى . فقد كانت سترته ، ذات اللون الأحمر اللماع ، موشاة برسوم مختلفة ، وكان يغطيها معطف بنفسجي طويل ، مبطن بقماش أصفر فاقع . وفي ساعديه كانت تخشخش أساور فضية دقيقة ، وتحيط بعنقه قلادة شبيهة بقلادة رفيقه نقش عليها : « ومبا ، بن ويتلس ، عبد سدريك دي روذروود » . وكانت قبعته محاطة بإطار من الجلد معلق به أجراس صغيرة ، ترن كلما هز رأسه ، وهو كثيراً ما يهزه . كانت زينة « ومبا » وحركاته تنم عن أنه من هذا النوع من المهرجين ، الذين كان يتخذهم الملوك والأمراء لتسليتهم في ساعات الاكتئاب والضيق . وكان ومبا يحمل كيساً صغيراً في وسطه ، إلا أنه كان يعلق سيفاً من الخشب مكان الخنجر .

على أن تعبير كل من الرجلين كان مختلفاً عن تعبير الآخر ، فبينما كان يبدو القلق والألم الدفين في نظرات غورث ، كانت اللامبالاة تبدو على قسمات ومبا .

وصاح غورث الذي كان ينفخ ببوقه ليجمع خنازيره المتفرقة :

« لتنزل لعنة القديس ويثولد على هذا القطيع ! .. هنا ، فنغس ! » .

وكان « فنغس » اسم الكلب الضخم الذي كان

يبث الذعر في القطيع ، فلا يتجمع . ثم التفت إلى رفيقه وقال :

— « ساعدني في جمعه ، يا ومبا .. أرجوك ! » .

— « أأنت تمزح ؟ إن ساقي » وقد استشرتهما ، تؤكدان أن تعريض ملابسي الجميلة للاتساخ بوحل الحقول جريمة في حق شخصي المبجل ، وحق خزانة ملابسي الملكية ! .. اسمع أيها الصديق غورث .. أفضل حل هو أن تدعو إليك « فنغس » وتترك هذه الخنازير لمصيرها .. وكن على ثقة أنها إذا صادفت جنوداً أو عصاة أو حجاجاً فإنها ستتحول منذ الغد إلى « نورمانديين » ! .

— « وحق القديس دانستن لم تقل سوى الحقيقة المؤلمة ! النورمانديون لم يتركوا لنا سوى الهواء الذي نتنشقه ! إنهم يملكون كل شيء : أفضل المواشي وأحسن الأراضي في أيديهم .. وهم يرسلون خيرة شباننا ليحاربوا في البلاد النائية .. بارك الله في سيدنا سدريك الذي يتصرف تصرف الرجل الشجاع ، ويظل دائم اليقظة .. ولكن يقال إن « رجينالد جبهة الثور » سيأتي بنفسه .. أرجو ألا تضيع جهود سدريك عبثاً .. هنا ، فنغس ! .. أحسنت ، يا فنغس .. ها هو القطيع قد تجمع ! » .

ثم أضاف وهو ينصت إلى صوت عدو بعيد :

« ما هذا ؟ » .
— « فُرسان ! » .
— « وماذا يَهُمّنا نحن ؟ ! .. لِنَعُدْ بسُرْعة ، فالسماء تُنْذِرُ بمطرٍ وشيك ! » .

٢ . ضيوف غامضون

لم يأبَهْ وَمْبا لتحذير رفيقِه وحثّه على الإسراع ، بل ظَلّ ماضياً في عَبَثِهِ وثرثرتِهِ حتى أدركَهما نحوُ عشرة من الفرسان .

كان الفارسانِ اللّذان يتقدّمان الموكبَ يبدُوان من أصحاب المكانة . أما أحدُهما فكان ظاهراً أنّهُ ذو مرتبةٍ كَنَسيّة رفيعة ، وأنه ينتمي إلى فرقة « سيتو » الدينيّة . غير أنّ ملابسَهُ كانت من نسيجٍ أجملَ بكثيرٍ مما يرتديه الرّهبان في العادة . يُضافُ إلى ذلك أنّهُ كان ممتلئَ الجسم ، مما يدُلّ على أنّهُ لا يأبَهُ للصّيام وتعذيبِ الجسد . وكان باديَ البِشْرِ والمَرَح ، وهو يعلو صَهْوَةَ بغلة جميلة زُيّنت على أحسَنِ وَجْه ، وعلّقَ على لِجامِها عدَدٌ من الأجراس الفضيّة الصغيرة . غير أنّ أحدَ إخوانه كان يَجُرّ جواداً إسبانياً رائعاً عليه سَرْجٌ مُطرّزٌ بشكلٍ جذاب .

كان رفيقُهُ فارساً من فرسان الكنيسة ، لا تقلّ سِنّهُ عن الأربعين . كان فارعَ الطولِ متينَ البُنيان ،

رَقّقَتْ جسَدَهُ الأعمالُ الكثيرةُ والمشاقّ المتواصلة . كان وجهُهُ المعبّرُ الذي لوّحَتْهُ شمْسُ الأصقاعِ المَداريّة والذي تعلُوهُ قُبّعَةٌ حمراء مزيّنَةٌ بالفَرْو ، يُوحي بالمهابةِ والاحترام . وفي عينَيْه كان يَبْدو ذلك النوعُ من الجرأة الذي يفتّشُ عن العقَبات والمخاطِرِ لا لشيءٍ إلا ليجدَ المُتْعَةَ في تحدّيها وقهْرِها . كانت قسماتُهُ ، في حالة الاسترخاءِ ، تبدو هادئةً ، غير أنّ بُروزَ العروقِ في جَبْهتِهِ واختلاجَ شفتِهِ تحت شاربه الأسود الكثيف ، كلّ ذلك كان يَفْضَحُ ما ينطوي عليه من حدّةِ الطبعِ والقسوة . كان يرتدي ثوباً كهنوتياً أرجوانيّ اللون زُيّنَتْ كتفُهُ اليمنى بصليبٍ من القُماش الأبيض ، واكتسى بالزّرَد وانتهى بكُمّيْنِ وكفّيْن من الحديد . ويصِلُ الزّرَدُ إلى الساقين ، أما الركبتان فقد غُطّيتا بصفائحَ من الفولاذ أشبهَ بحراشِفِ السمك . وكان يتدلّى من حزامِه خنجرٌ طويلٌ مزدوجُ الحَدّ . وقد ركب هذا الراهبُ الفارسُ رَهْوانَ* ، بينما ترك جوادَهُ لتابعٍ يَجُرّهُ من رَسَنِهِ حتى يحفَظَ قوّتَهُ للمعارك . وكان الجوادُ مُجهّزاً بنفس الطريقةِ التي يُعَدّ بها لخوض معركة . فقد عُلّقَتْ بسَرْجِه بَلْطةٌ دمشقيّةُ الترصيعِ وخوذةٌ تخفقُ في رأسِهِ رايةٌ رُسِمَتْ عليها شارةُ الصّليب ،

* نوع من البراذين او البغال .

كما يحملُ تُرْسَهُ المثلّثَ وقد غُطّيَ بقماشٍ أرجوانيّ .

وكان وراءَ هذَين الرّجُلَيْن تابعان آخران تَدُلّ سُمْرَتُهما والعِمامةُ الفاقعةُ التي يعتمرانها على أنهما شرقيّان من آسيا ، وكانا يمتطيان جوادَيْن عربيّين يتناقض نحولُهما مع ضخامة الخيولِ التي كان يركبُها المحاربونَ الغربيون .

وقد أثارَتْ هذه المجموعةُ اهتمامَ « وَمْبا » و « غورث » الذي عرفَ ، منذ الوَهْلةِ الأولى ، ان الرجلَ الأولَ هو أسقفُ ديرِ جورفولكس ، المعروفُ بحبّه للصّيْد والمآكلِ الشّهيّة ، وبكرَمِه نحوَ الفقراء . فسلّمَ عليه العبدان السّكسونيّانِ بكلّ احترام ، كما تلَقّيا بَرَكَتَه .

وقال رئيس الدير لـ « ومبا » وهو يقذِف اليه بقطعة فضيّة : « دُلّني ، يا بنيّ ، على الطريق المؤدّيةِ إلى منزلِ سدريك السكسوني ! » .

— « تسلكون ، سيادتُكم ، هذه الجادّةَ حتى المَفرِق ، حيث يوجَدُ صليبٌ مقلوب .. هناك تَنعطِفون نحوَ اليسار .. وأرجو أن يُعينَ اللهُ سيادتَكُمْ على الوصولِ قبلَ هُبوبِ العاصفة وهطول الأمطار ! » .

وانطلقَ الفُرسانُ عَدْواً في الاتجاهِ الذي حدّدَهُ لهما « وَمْبا » . قال « غورث » بعد أن ابتعدوا :

— « بالطريقةِ التي وَجّهْتُهم بها ، سيكونون محظوظين إنْ وَصَلوا إلى روذروود هذا المساء ! » .

— « هذا صحيح ! ولكنّهمْ يستطيعونَ أن يَصِلوا إلى شيفيلد التي لا تختلفُ عن غيرها من الأماكن .. إنني ، كصيّادٍ ، أحذَقُ من أن أدُلّ الكَلْبَ على بيت الأرنب ، إن كنتُ لا أريد أن يَقْبِضَ عليه ! » .

— « أنتَ على حق .. فلا يجبُ أن تقع عين « ايمر » على اللّيْدي رُوِينا ، ولا أن يحتكّ سدريك بالراهب — الجندي ! أما نحن فعلينا ، كخادمَيْنِ أمينَيْن أن نرى ونسمعَ ونُقْفِلَ فمنا ! » .

في تلكَ اللحظةِ كان الفارسانِ ، وهما ماضيانِ مع جماعتِهما ، يتحدّثان باللغةِ الفرنسيةِ ، النورماندية ، التي كانت لغةَ الطّبقاتِ العليا .. قال فارس الهيكل :

— « أترى إلى وقاحة هذين الحقيرَيْن ؟ ! كان بوُدّي أن أعلّمَهُما كيف يكونُ الأدب .. فلكم طوّعْتُ الأسرى الأتراكَ الذين لا مثيلَ لهم في الشراسة ! »

— « لكلّ بلادٍ أخلاقُها وعاداتُها .. ثم إنّ ضَرْبَ هذا الإنسانِ التافهِ كان من شأنه ألاّ يُوصِلَنا إلى منزل سَدْريك .. ولا تَنْسَ أنّ سَدْريك فخورٌ بنفسه .

ثم إنه بالاضافة إلى ذلك حادّ الطبع .. إنه عدوّ لدودٌ لطبقة النبلاء ، وخاصةً لجارَيْه « رجينالد جبهة الثور » و «فيليب دي مالفوازان» ، وهما خصمان شديدا البأس .

وهو يدافع عن مواطنيه بقُوّةٍ ويعتزّ بأنه متحدّرٌ من



غريث وواميا في الغابة ١

هيروارد ، بطل هبترشي ، لذلك يلقبونه عادة بسدريك السكسوني . »

— « أيها الرئيس إيمر ، أنتَ خبيرٌ بالجمال ، ولكنَّ جمال « رُوِينا » لا بُدَّ أن يكونَ عديمَ المثال ، لهذا يجبُ عليَّ أن أتذرّعَ بالصبر وأتصرّف مع والدها بمنتهى اللّطفِ واللّياقة ما دامَ بالشراسة التي ذكرْتَ ! » .

— « إن سدريك ليس والداً لرُوِينا .. فهي تتحدّرُ من فرعٍ أشرفَ بكثيرٍ من الفرع الذي يدّعي سدريك أنه ينتمي اليه . إنّهُ يمُتّ اليها بنسبٍ بعيدٍ ، ولكنّهُ اتّخذَ لنفسه صِفَةَ الوَصِيّ عليها ، وهو يمارسُ هذه الوصايةَ بغَيْرةٍ منقطعةِ النظير . أما جمالُها فمن شأنِهِ أن يُنسيكَ جمالَ أيّ امرأةٍ من حِسانِ أوربا وآسيا . من أجلِ ذلك أوصيكَ بألاّ تلجأَ معها إلى الأساليب التي ألِفْتَها مع النساء الأخريات .. فسدريك سريعُ الغضب ، ولن يتورّعَ عن طردِنا حتى في منتصفِ الليلِ .. ويُقالُ إنه نفى ابنَهُ لأنه تجرّأ على رفعِ نظره إلى رُوِينا . »

— « سأحاولُ أن أكونَ في غايةِ الرّقّةِ ، هذه الليلةَ ، وأن أتذرّعَ بحياء العذارى ! .. ها هو الصليبُ المقلوب .. لِنتّجِهْ إذن نحوَ اليمين ! » .

— « نحو اليسار ، من فضْلك .. فلقدْ حدّدَ لنا

الاتجاهَ بسيفِهِ الخشبيّ ! » .

— « صحيح ، ولكنه كان يُمْسِكُ السيفَ بيده اليسرى ! » .

وراح الرجلان يتناقشانِ حولَ الاتجاه ، وكلٌّ متمسّكٌ برأيه . ولم يكنْ بمقدور مرافقيْهما أن يَفْصِلوا في الأمر ، لأنهم لم يسمعوا ما قاله « وَمْبا » . ورأى « بريان » فجأةً أن هناك رجلاً يستلقي تحت الصليب المقلوب ، فصاح بخادمه :

— « هيغو ، أيقِظْ هذا الرجلَ بحَرْبَتِك ! » .

وقال الرجلُ بلغةٍ فرنسيةٍ سليمةٍ وهو ينهض :

— « لماذا تزعجونني أيها الغرباء ؟ » .

قال رئيس الدير :

— « كنّا نريدُ أن نسألكَ عن الطريق المؤدّيةِ إلى روذروود ، مقرّ سدريك السكسوني ! » .

— « أنا ، نفسي ، ذاهبٌ إلى هناك ! ولو كان معي فرَسٌ لَمدَدْتُكُمْ بكلّ سرور ! » .

فأمرَ الرئيسُ له بحصان ، فمضى بهم في اتجاهٍ غيرِ الذي حدّدَهُ « وَمْبا » الماكر .

وبعد أن قطعوا طريقاً متعرّجةً وَسطَ الغابات ، تعترِضُها الجداولُ والمستنقعات ، وصلوا إلى طريقٍ عريضةٍ تؤدّي إلى بناءٍ واسعِ الأرجاء قليلِ الارتفاعِ

غيرِ متناسق . ولما اطمأنّ إيمر إلى أنهم وصلوا إلى مُبْتَغاهُمْ سألَ الرجلَ الغريبَ من يكون . قال هذا :

— « إنني أحدُ الحجّاج .. وقد عُدْتُ حديثاً من الأراضي المقدّسة ! » .

وتدخّل الراهبُ الفارسُ قائلاً :

— « كان عليك أن تبقى هناك لتخليصِ القبرِ المقدس ! » .

فأجابَ الحاجّ الذي كان يبدو أنه يعرِفُهُ :

— « بالطّبْع ، أيّها الفارسُ المحترم ، ولكنْ عندما يكونُ أولئكَ ، الذين نَذَروا أنفسَهُمْ لهذا الشأن وأقسموا على المُضيّ فيه ، بعيدينَ عن الأرضِ المقدسة ، فهل لفلاّحٍ بسيطٍ مثلي أن يفعلَ غيرَ ما يفعلون ؟ » .

فغضِبَ الفارسُ الكنسيّ ، وأراد أن يَرُدّ على إهانةِ الحاجِّ بقَسْوة ، ولكنّ رئيسَ الديرِ قاطعَهُ وقال للرجُلِ الغريبِ إنّه لمن المدهشِ حقاً أن يَعْرِفَ الطريقَ بعد هذا الغيابِ الطويل . فأجابَ الدليل :

— « أنا مولودٌ في هذه البقعة ! » .

بالرّغم من أن سدريك كان واسعَ الثراء ، فإنّ قَصْرَهُ لم يكن مُنْطَوياً على حصونٍ كتلك التي يُقيمُها النورمانديون على جوانبِ قصورهم المنتشرةِ في كافة أنحاء انكلترة . ومع هذا لم يكن قصرُ روذروود محروماً من الحماية ، فلقد كان مُحاطاً بخندقٍ عميقٍ تملأُهُ المياه ،

وسُورٍ مُزْدَوِجٍ من العُمُد وراءَهُ خنادقُ يحتمي فيها الحرس .

ووقف الراهبُ الجنديّ في مواجهةِ الجسرِ المرفوع ونَفَخَ في بُوْقه .

٣ . قصر سدريك

في قاعة بالغةِ العَرْض والطولِ منخفضةِ السقف ، كان سدريكُ السكسونيُّ ينتظر العَشاء أمام مائدةٍ فُرِشَ عليها غطاءٌ سميكٌ أحمرُ اللون .

من النظرة الأولى إلى هذا الرجل يُدركُ المرءُ أنه صريحٌ سريعُ التأثر . إنه رَبْعُ القامة ، ولكنّهُ مفتولُ العضَلِ متينُ البنيان ، شأنَ من تعوّد الصيدَ وخَوْضَ المعارك . كانت تضيء وجهَهُ عينان زرقاوانِ وأسنان بديعةُ الرّصْف . ورغمَ أنه كان يناهزُ الستّين من العمر ، فقد كان ينسدلُ على كتفَيْه شَعْرٌ أشقرُ ليس فيه سوى القليلِ القليلِ من الشعرِ الأبيض .

كان اثنان أو ثلاثةٌ من الخدَم يقفونَ حولَ سيّدهم مُتتبّعين كلّ حركة أو إشارة ليَخِفّوا إلى تنفيذ أوامره . وكان ينتظرُ الأكلَ أيضاً ، بفراغ صبرٍ ، ثلاثةُ كلاب لصيد الغزلان والذئاب وعددٌ من كلاب الحراسة الطويلةِ الآذان ، وزوجٌ من تلك الكلاب ذاتِ

القوائم القصيرةِ المُعْوَجّة . كانت جميعُ هذه الكلابِ
هادئةً لا تتحرّك ، إرضاءً لصاحبها ، أو خوفاً من العصا
البيضاءِ التي كانت على الخُوان بالقرب من سدريك .

وكان يبدو على سدريك شيءٌ من القلق .. ذلك
أن رُوينا عادت من صلاة المساء ، في كنيسة بعيدة ،
وهي مُبْتَلَّةُ الثياب ، كما أن غورث لم يَعُدْ بَعْدُ
بقطيعه من المرعى ، ولا يُسْتَبْعَدُ أن يكونَ بعض
الخارجين على القانون ، الذين ينتشرون في الغابات المحيطة
بالمنطقة ، قد استَوْلَوْا على القطيع . وهذه مسألةٌ خطيرة ،
لأنّ معظمَ ثَرَوات السكسونيّين كانت تتألّفُ من قُطعانِ
الخنازير التي تجدُ فَيْضاً من الغذاء في تلك الغابات .
يضاف إلى هذا كلّه غيابُ وَمْبا ، مُهَرّجِهِ المقرَّب ،
الذي كان يؤنس بنكاته لحظات القلق الذي قد يَعتري
البارون . وسأل سدريك :

— « لِمَ لم تأتِ رُوينا حتى الآن ؟ » .

فأجابت إحدى التابعات بأنها ستحضُرُ في الحال ،
بعد أن تُغيّرَ ملابسَها المبتلّةَ وتُصْلِحَ تسريحتَها .

وتساءَلَ لِمَ لم يَعُدْ غورث حتى هذا الوقتِ المتأخّر ؟
فأجاب الساقي أوزوالد بهدوءٍ بأنّ الوقتَ ليس متأخّراً ،
إذْ لم يمضِ أكثرُ من ساعةٍ على « حَجْب الأنوار » .
هذه الكلمةُ أثارَتْ غضَبَ سدريك ، فصاح :

— « ملعونٌ حَجْبُ الأنوار ، وملعونٌ الذي سَنّهُ ،
والعبدُ البهيمُ الذي يتجرّأ على ذِكْرِهِ أمام سكسونيّ ! ..
إنّ حَجْبَ الأنوار يُجبرُ الناسَ الأشرافَ على إطفاء
مصابيحِهِم ، ليَتْرُكَ المجالَ للّصوص وقُطّاعِ الطُّرُق
كيما يَسْرَحوا ويَمْرَحوا كما يشاؤون .. ريجنالد جبهة
الثور وفيليب دي مالفوازان يَعْرِفان جيداً كيف يستغلاّنِ
حَجْبَ الأنوار مثل «وليم الدعيّ» وعصابته من النورمانديين ! .
ولكني سأعرِفُ كيف أنتقِمُ من هؤلاء النورمانديين
الظالمين .. سأنازلُ ذلك النورمانديَّ في معركةٍ منفرِدةٍ ،
وأثْبِتُ لهُ أن دم هيروارد ما زال يجري في عروق سدريك ! »
ثم أضاف بصوت منخفض : « آه يا ويلفريد ! ليتكَ سيطرتَ
على شهوتك الرّعناء .. إذن لما كنتَ تركتَ أباكَ الكهل
وحيداً مُنْفَرِداً كالسنديانةِ العاريةِ أمام رياح الجنوب ! » .

بعد هذا استسلمَ إلى تأمّلاتِهِ التي ما لبثَ أن انتزعَهُ
منها صوتُ بُوق في الخارج تَبِعَهُ نُباحُ الكلاب من
كلّ ناحية ، سواءٌ منها التي كانتْ بالقُرْب منه أو تلك
التي تنتشرُ في القَصْر المترامي الأطراف . ولمّا هدأ
الضجيجُ أمرَ خدَمَهُ بأن يذهبوا للاستطلاع .

ولم تَمُرَّ لحظاتٌ حتى جاءَهُ أحدُ الحُرّاس وأنبأَهُ
بأنّ الأسقفَ ايمر رئيس دير جورفولكس والفارسَ بريان
دي بواجيلبر ، قائدَ فرسان الكنيسة ، وهما في طريقهما

إلى مباريات « أشبي دي لا زوش » للفروسية ، يطلبان منه إيواءَها وحاشيتَها هذه ، الليلة . فتمتمَ سدريك قائلاً :

— « رئيس الدير ايمر وبريان دي بواجيلبر ! .. نورمانديان ! .. ولكن .. سواء كانا نورمانديّين أو سكسونيّيْن فأنا لا أرفضُ إضافة أحد مهما كان ! .. ما داما قد اختارا روذروود فمرحباً بهما ! » . ونادى أحدَ أتباعه :

— « هندبرت ، خذْ ستةً من الرجال ، واذهبْ للقاءِ هؤلاء الأغراب ، وإجراءِ الترتيبات اللازمة لإيوائهم .. إعرِضْ عليهم ملابس ، وأشعِلِ النارَ في كافةِ الأجنحةِ التي تُنْزِلُهُمْ فيها وقدّمْ إليهم جعةً وخمراً .. وقُلْ للطبّاخين أن يُضيفوا عدَداً من الأطباق إلى المائدة حالما يستعدُّ الضيوفُ للعشاء .. ولا تنْسَ أن تقولَ لهؤلاء الناس إن سدريك قد أقسمَ على ألا يتقدّمَ أكثرَ من ثلاث خطُوات لاستقبال أيّ إنسانٍ إن لم يكنْ من دمٍ ملكيّ سكسونيّ .. أسرِعْ حتى لا يقولوا « إنّ السكسونيّ الفظّ قد أرانا فقرَهُ وبُخْلَهُ ! » ثم استطردَ قائلاً : « يقالُ إنّ رئيس الديرِ رجُلٌ مرِحٌ ، وإنّهُ أكثرُ صداقةً للبُوقِ والزّجاجةِ منهُ للنّواقيسِ وكتابِ التراتيل .. ليأتِ

إذنْ .. مرحباً بهِ ! وهذا الراهبُ الجنديّ .. ماذا يُدْعى ؟ » .

— « بريان دي بواجيلبر ! » .

— « بواجيلبر .. بواجيلبر .. إنه اسمٌ مشهورٌ بالخير والشرّ ، كليْهِما .. فهُوَ من حيثُ البسالةُ والإقدامُ متفوّقٌ على جميع أقرانهِ من فرسانِ الكنيسة ، ولكنّهُ ، إلى جانب ذلكَ ، مُنْطَوٍ على جميع مساوئهم : الكبرياءِ والتعالي والقسوةِ والتفسّخِ الخُلُقي ! إن قلْبَهُ ، القاسي كالحجرِ الصّلد ، لا يخشى لا الإلهَ ولا الشيطان .. إفْتَحْ ، يا ازوالْد ، برْميلاً منَ النّبيذِ المُعتّق ، ولْتكُنِ الأكوابُ من أكبر حجم ، فرجالُ الأديرةِ وفرسانُ الرّهبنةِ ، يحبّونَ الخمرةَ الفاخرةَ والطاسات الكبيرةَ .. وأنت ، يا إلجيثا ، قولي لليدي روينا إنَّ في استطاعتِها ألا تجلِسَ إلى المائدة هذا المساءَ ، إنْ كانت تُفضّلُ عدَمَ الظهور .

* * *

٤ . روينا الفاتنة

وهنا دخلَ أربعةٌ من الخدَم يحملونَ المشاعلَ وعلى رأسهم قهرمانُ القصْر ، ووراءهم الضيْفان اللذانِ استبْدَلا بملابسِها أثواباً فخمةً بهيّة .

وكان يسيرُ خلفَ الضيفَيْن أتباعُهما من مُروّضي الخيلِ ومُدرّبي الفُروسيّةِ والرّهبان ، ومعَهمُ الرّجُل الذي قادَهُمْ إلى روذروود ، والذي جلسَ في زاوية منعزلة قُرْبَ أحدِ الموقِدَيْن ، وراح يُجفّفُ ملابسَهُ . وكان يرتدي ثوباً من الصّوفِ الأسودِ الغليظ ، الذي يرتديهِ الحُجّاجُ في العادة ، ويحملُ عصاً طويلةً محدّدةَ الرّأسِ ومزيّنةً بورقةِ نخيل .

وما إنْ رأى سدريك ضيوفَهُ حتى نهضَ واقفاً ونزلَ عن منصّتِهِ ثم تقدّمَ ثلاثَ خُطُوات وانتظر.. قال :

— « أنا آسف ، أيها السيّدُ رئيسُ الدير ، لأنّ قَسَمي يمنعُني من أن أتقدّمَ أكثرَ من هذا لاستقبال ضَيْفَيْن ، مثلكَ ومثلَ هذا الفارسِ المقدام ، في منزلِ آبائي ! لا بدّ أن وكيلي قد فسّرَ لكم سببَ هذا التقصير الشكليّ في استكمال اللّياقة .. واعذُراني أيضاً إذْ أتحدّثُ إليكما باللغة السّكْسُونية ، وأرجو أن تردّا عليّ بنفس اللغة إنْ كنتما تعرفانها.. وإذا كنتما تجهلانِها فأعتقدُ أنني قادرٌ على فهْمِكما لأنني أُحسِنُ اللغةَ النورماندية ! » .

فردّ رئيسُ الدّيرِ قائلاً :

— « أيها الفرانكليّ النبيل ، إن النُّذُرَ يجبُ أن تُحترَم ،

لأنها هي الأسبابُ التي تربطُنا بالسماء ! .. أما بخصوص اللّسانِ الذي سأستخدمُهُ فإنني سأتحدّثُ ، بكلّ سرورٍ ، بلسانِ جدّتي المحترمة هيلدا دي ميدهام ! » .

وقال الفارسُ الراهب :

— « أما أنا فانني أتحدّثُ دائماً باللغة الفرنسية ، فهي لغةُ الملكِ ريشار ولغةُ النبلاء ، على أنني أفهمُ الانكليزيةَ جيداً ، مما يتيحُ لي معرفةَ عاداتِ البلاد وتقاليدها » .

كان من أثرِ هذا التلميحِ إلى الخصومة بين الشعبَيْن أن اشتعلَتْ عينا سدريك بالغضب ، إلا أنّهُ كظمَ غيظَهُ حتى لا يخالفَ تقاليدَ الضيافة ، وأشار إلى ضيفَيْهِ أن يجلِسا على مقعدَيْن أقلّ مستوىً من مقعدِهِ وُضِعا إلى يساره .

وحفلَتْ مائدةُ الشّرَفِ بأصناف متعدّدة من لحمِ الخنزيرِ ولحوم الدّواجنِ والطيورِ والسّمك ، وبالحلويات والفاكهةِ المختلفة . وكان أمامَ كلّ ضيفٍ من الرّتَبِ الرفيعةِ طاسٌ من الفِضّة ، أما الباقونَ فقد كانوا يشْربونَ بالقرون .

وكان الحافلونَ على وشْكِ البدءِ بالأكْلِ عندما ارتفعَ صوتُ القهرَمانِ مُعلِناً :

— « أفسحوا مكاناً للّيدي روينا ! » .

ولما ظهرت ليدي رُوينا خفّ سدريك للقائها ،

رغمَ أنه فوجِىءَ بمجيئها مفاجأةً غيرَ سارّة ، ثم قادَها إلى مَقعدٍ عن يمينه . ونهضَ جميعُ مَنْ بالقاعة ، فحيّتْهم برِقّة ، وجلسَتْ .. فبدأ العشاء .

كانت ليدي رُوينا رائعةَ الجمال ، وكان لونُها المُذْهِلُ يُبْرِزُ تقاطيعَ وجهِها المتناسقةَ النبيلةَ وبالرَّغمِ من أنها تعوّدَتْ إصدارَ الأوامرِ وتلَقّي عبارات الإطراء والمديح ، مما يَطْبَعُها بطابَعِ الكِبْرياء ، فقد كانت الرِّقّةُ تَفيضُ من مُحيّاها .

وكانت تَضَعُ على رأسِها نِقاباً حريرِيّاً ذهبيَّ اللونِ تستطيعُ أن تَنْشُرَهُ وتُغَطّي به وجْهَها وصَدْرَها وكَتِفَيْها . ولما رأتْ نظرات الفارسِ الراهبِ لا تتحوّلُ عنها ، أرخَتِ النّقابَ على وجهِها بكلّ احتشام .

ولاحظَ سدريك هذهِ الحركةَ ، فقال :

— « أيها السيّد الفارس : إن وجَنات فتياتِنا السّكسُونيات ، التي لا تراها الشّمس . لا تستطيعُ أن تتحمّلَ نظراتِ صَليبيّ . »

فرد بريان قائلاً :

— « إنْ كنتُ قد أخطأتُ فأرجو السّماحَ من ليدي رُوينا ! » .

وقال رئيسُ الدير :

— « لقد عُوقِبْنا جميعاً بِتَهوّر صديقي ! » ثم

أضافَ قائلاً لسدريك : « أرجو أن تُوافِقَ على مصاحبتِنا إلى مبارياتِ « أشبي » ، فصحبةُ السيِّد بريان دي بواجيلبر ليستْ بالشيء القليلِ في مثل هذه المناطقِ غيرِ المأمونة ! » .

أجاب السّكسونيّ :

— « أيها السيّد ، أنا لم أحتَجْ قَطّ إلى سيف أحد لحمايتي.. إنني ورجالي نعرِفُ كيف نُجْبِرُ على احترامنا ، سواءٌ الخارجينَ على القانون أو البارونات الذين يُناصبوننا العداء ... هأنذا أشربُ نَخْبَك ، أيها السيّد ، لقاءَ تلطّفك ! » .

وقال الفارس الراهبُ وهو يرفَعُ كأسَهُ :

— « وأنا أشربُ نخبَ رُوينا الحسناء .. هذا الاسمُ لم تحمِلْهُ قَطّ امرأةٌ بمثلِ هذا الجمال ! » .

وقالت رُوينا دون أن ترفَعَ نِقابَها :

— « لستُ في حاجة ، أيها السيد الفارس ، إلى كل هذا التَودّد .. ومع ذلك فسأُجرّبُ تلطّفَكَ هذا بسؤالك عن آخرِ أنباءِ فلسطين .. فهذا أدنى إلى إرضاء الآذان الانكليزيةِ من كلامِ الاطراءِ الذي يُغْدِقُهُ الفرنسيونَ في العادة بسخاء » .

— « إنني لا أعلمُ سوى القليلِ عن أحداث فلسطين ، اللّهُمّ إلا شائعةَ الهُدْنةِ مع صلاحِ الدين ، التي يبدو

أنها قدْ تأكّدَتْ » .

وقطعَ الحديثَ خادمٌ جاء يُعلِنُ قُدومَ زائرٍ جديد ، فقال سدريك :

— « استقبِلوهُ دونَ السؤالِ عن شخصيتِه ، ففي مثلِ هذه الليلة ، حتى الوحوشُ تطلُبُ ملجأً في كَنَفِ الإنسانِ ، أعدى أعدائِها . اهتمّ ، يا ازوالد بأمرِ الضيفِ ! » .

* * *

٥ . الرهان

وعاد ازوالد ليقول :

— « إنّه يهوديّ ، باسمِ اسحق اليوركي ، فهل أُدخِلُه إلى هنا ؟ » .

وأثارَتْ فكرةُ إدخالِ اليهوديّ إلى القاعة احتجاجَ الفارسِ الراهبِ ورئيسِ الدير ! ولكنّ سدريك لم يأبهْ لهما ، بل أمرَ بإدخالِ الغريب . فدخل هذا وحيّا الجمْعَ بذلّةٍ وخضوع .

كان الرجلُ طويلَ القامةِ نحيلَ الجسم ، غيرَ أن جسدَهُ يبدو وكأنه فقدَ مزيّةَ الانتصابِ من طول ما عوّدَهُ صاحبُهُ على الانحناء . ولولا سِمَةُ الضَّعةِ والشّحّ التي كانت مُرتسمةً على وجهِ هذا اليهوديّ

لكان جميلاً مَهيباً بتقاطيعِه المتناسقة ولحيتِه الفضيّة . ولعلّ من شأنِ الطريقة ، التي قوبِلَ بها ، ان تَهدّ أعصابَ أيٍّ كان مهما تحلّى بالجراءةِ والصّبر : فعلى الانحناءةِ البالغةِ الانخفاضِ ردّ سدريك بإشارةٍ تَسمَحُ لليهوديّ بالجلوس إلى المائدة الثانية ، أي مائدةِ الأتباع .. ولكنّ أحداً لم يُوسِّعْ لهُ مكاناً على هذهِ المائدة : فانبرى الحاجّ الذي كان يجلسُ على حِدَةٍ بجانبِ النار ، وقال :

— « تعالَ ، أيها العجوز ، لقد جفّتْ ملابسي وامتلأ بطني ، وأنت مبلّلُ الثيابِ فارغُ البطن ! » .

قال هذا وتركَ له مكانَهُ على الكرسيّ الصغيرِ أمام المائدةِ الصغيرة ، وتحوّلَ إلى الرّكنِ الآخرِ من القاعةِ بعدَ أن حمّلَ لهُ أطباقاً عن مائدةِ الأتباع من كافّةِ الأصناف ، وحرّكَ النارَ ليزيدَها اشتعالاً .

وبعد أن تحدّثَ سدريك مع رئيسِ الدّيرِ عن الصيد دارَ الحديثُ حولَ المفاضلةِ بين الفرسانِ السّكسونيين والنورمانديين الذين تميّزوا بالبُطولةِ في فلسطين ، فراحَ الجنديّ الراهب يُطري فرسانَ الكنيسةِ وفرسانَ القديس حنا ، ويؤكّدُ أنّهُ لا يُدانيهم أحدٌ في الشجاعةِ والإقدام . وتدخّلَ الحاجّ فأكّدَ أنّ السّكسونيينَ همُ الذين تفوّقوا على الجميع ، مما ملأ قلبَ سدريك بفرحةٍ طاغيةٍ في

حين أثارَ غَضَبَ بريان دي بواجيلبر إلى أبعد حَدّ حتى أنّهُ كادَ يجرّدُ سيفه ، لولا أنّ المقامَ لا يَسْمَحُ بمعركة . وطلبَ سدريك من الحاجّ أنْ يذكُرَ له بالتدريج أسماءَ الأبطال السكسونيينَ الذينَ تميّزوا في المعارك ، فقال : « إنّ الأوّلَ ، شرفاً ومَرتبةً وجراءةً هو ريتشرد قلب الأسد* ، مَلكُ انكلترا !! » .

قال سدريك :

— « إنني أغفرُ له تحدّره من الدوق وليم ، الطاغية الذي ظلَمنا ! » .

ثمّ ذكَرَ أربعةً على التوالي كان سدريك يبيّنُ أن أصلَهُمْ سكسونيّ سواء بصفة كُليّة أو من ناحية الأمّهات . أما السادسُ فقال الحاجّ إنهُ نَسيَ اسمَهُ ، وقال إنّهُ شابّ في مقتبلِ العمر وغير معروف .

قال بواجيلبر بشيءٍ من الاحتقار :

— « أيها السيّد الحاج : إنكَ لتتذكّرُ أشياءَ كثيرةً ، فما بالكَ نسيتَ اسمَ هذا الشابّ ؟ أنا أقولُ اسمهُ إنّهُ الفارس آيفنهو ، ولا أحدَ من الخمسة الذين ذكرتَهُم كان لهُ مثلُ شُهرتِه يومَ أن كان في سنّه . ومع هذا فأنا أعلنُ أنّهُ إن جاءَ إلى انكلترا وأرادَ أن يَزِنَ

* أو ريكاردوس قلب الاسد كما كان العرب يسمونه .

نفسَهُ بي ، فأنا مستعدّ لمنازلتِهِ تاركاً له اختيارَ السّلاحِ الذي يريد ! » .

فردّ الحاجّ قائلاً :

— « لو كانَ هنا لما تردّدَ في قبولِ التّحدّي . وأنا أؤكّدُ لكَ أنّهُ إن عادَ من فِلَسْطين فلا بُدّ أنه مُلاقيك ! » .

قال بواجيلبر بسخرية :

— « يا لَهُ من تأكيد ! .. ما الذي تَضعهُ كرهان ؟ » .

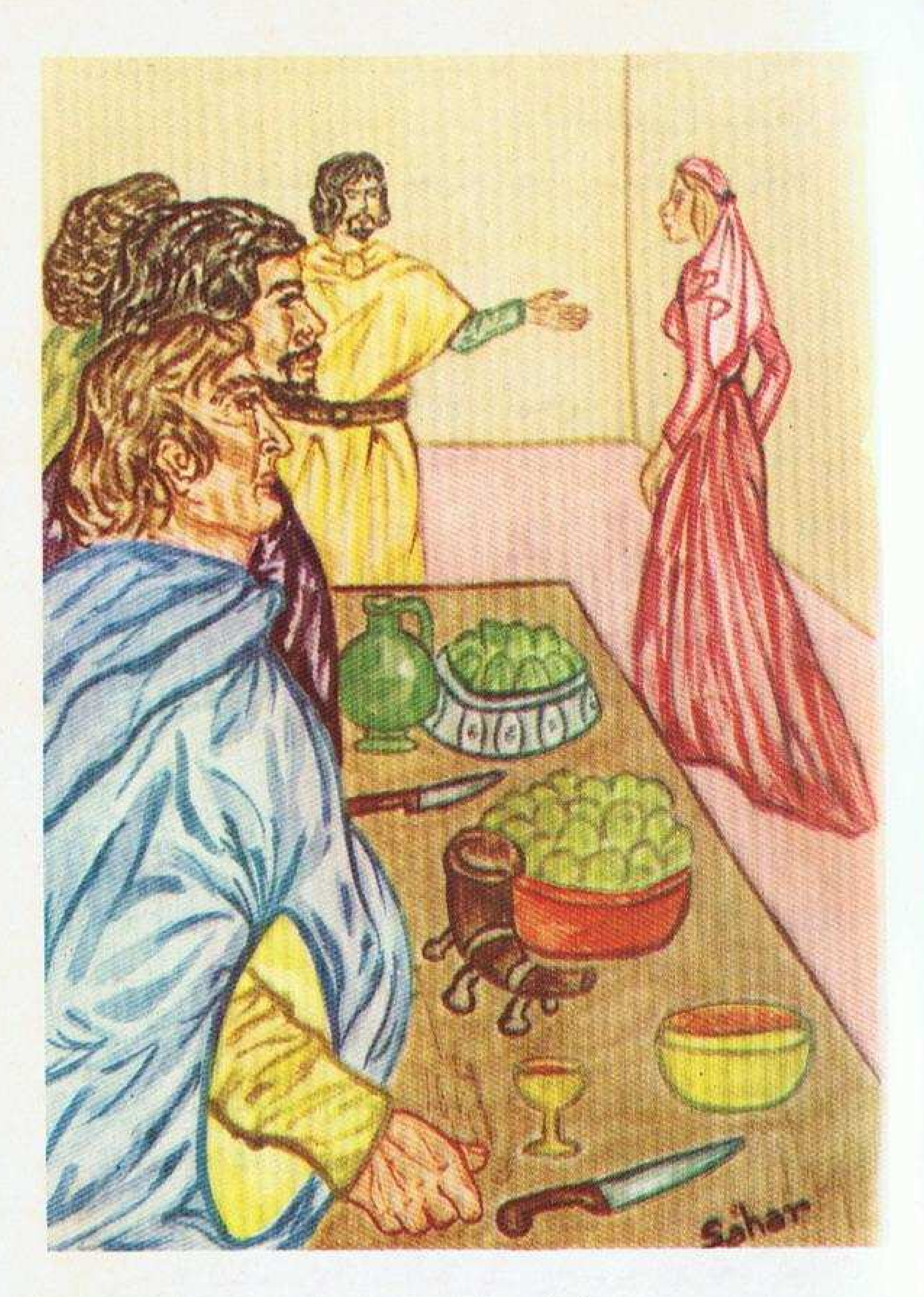
أجاب الحاجّ ، وهو يُخْرِجُ عُلبةً صغيرةً من العاج :

« هذا المُدّخر (صندوق يحتوي على أشياء مقدسة) ! وهو يَضُمّ قطعةً من خشبةِ الصّليب الأصلية ، وقد حصلْتُ عليه من ديْرِ جبلِ الكرْمل ! » .

فرسَمَ جميعُ المسيحيين علامةَ الصليب فيما عدا الفارس الراهب ، الذي نزعَ من عنقِهِ سلسلةً ذهبية ورماها على المائدةِ قائلاً :

— « ليحتفظ رئيسُ الدير « ايمر » بعُربوني وعُربون هذا المتشرّد المجهول ، ليَشْهدَ بأنّ الفارس آيفنهو سيرُدّ على تحدّي بريان دي بواجيلبر عندما يعودُ إلى انكلترا ، فاذا لم يفعَلْ نقشْتُ اسمَهُ كجبان على جدران كافةِ القيادات لفرسان الكنيسةِ في أوربا ! » .

وهنا تدخلت ليدي رُوينا قائلةً :



راوينا تدخل القاعة ٢

— « لن تتكلّفَ هذا الجهدَ على الإطلاق ! .. إذا كانَ لا يَرْتفِعُ صوتٌ للدّفاعِ عن آيفنهو وهو غائبٌ ، فهذا صَوْتي أنا يَرْتفِعُ لنُصْرَتِه . إنني أؤكد أنهُ سيقبَلُ بأيّ تحدّ مُشرّف . وإذا كانت كلمتي تستطيعُ أن تضيفَ شيئاً إلى العُرْبونِ الذي لا يقدّرُ بثمنٍ والذي قدّمَهُ هذا الحاجّ الورِعُ فأنا أضَعُ اسْمي وشَرَفي مؤكّدةً أن آيفنهو سيُرْضي هذا الفارسَ المُعْتَزّ بنفسه ! »

كانت طائفةٌ من الأحاسيسِ المتناقضة تنتابُ سدريك وترتسمُ على وَجْهِهِ ، فلما تكلّمَتْ رُوِينا وَجَدَ أنه يتعيّنُ عليه أن يقولَ شيئاً ، فقال :

— « إذا كانتْ هناك ضَرورةٌ لتدعيم الرّهان بالشّرف فأنا أحقّ من يكفُلُ شَرَفَ آيفنهو ، لأن الإهانةَ موجّهةٌ إليّ أيضاً . ولكنْ لا أعتقدُ أنه ينقصُ الرهانَ شيءٌ .. أليس كذلك ، أيها المحترم ايمر ؟ »

— « الرّهانُ كاملٌ تماماً ، وستُوضَعُ هذه الذخيرةُ المقدّسةُ وهذه السلسلةُ الثمينةُ في خزْنةِ الدير إلى خاتمة التحدّي ! » .

وكان رئيسُ الديرِ يخشى أن يحْدُثَ خِلافٌ جديد بين سدريك وبواجيلبير ، فقال :

— « إن خمرتَكَ ، يا سيّد سدريك ، شديدةُ التأثير إلى درجة أنني أحسّ أن جميعَ أجراسِ ديري تطنّ

في أذُنيّ . فاسمَحْ لنا أن نشربَ نَخْبَ ليدي رُوِينا ، ثم نَذْهب إلى مضاجعنا .

وشرِبَ الجَمْعُ آخرَ جرْعةٍ ثُمّ تفرّقوا .

٦ . الحاج الغامض

بينما كان الحاجّ متوجّهاً ، وراء خادمٍ يحملُ مِشْعَلاً ، إلى الحجرة المُعَدّة لمبيته ، لحقَتْ به إحدى وَصِيفات ليدي رُوِينا ، وأبلغَتْهُ أنّ سيّدَتَها تريدُ التحدّثَ إليه . ورغمَ أنّ المفاجأةَ قد أذهلَتْهُ ، فلم يَمْلِكْ سوى أن يتبَعَ الوصيفةَ دونَ اعتراض .

عندما دخلَ الحاجّ على رُوِينا ركَعَ أمامَها وهي جالسةٌ على مَقْعَدٍ مُرْتفع ، قالت :

— « إنهض ، أيها الحاجّ ، إن الذي يدافعُ عن الغائبينَ يحقّ له أن يُستقبَلَ استقبالاً لائقاً من كلّ مَنْ يُقدّرُ الحقيقةَ ويكرّمُ الشجاعة ! » .

وبعدَ تردّدٍ استطردَتْ تقول :

— « أيها الحاجّ ، لقد نطقْتَ هذا المساءَ باسم آيفنهو في منزلٍ من الطبيعيّ أن يُعْلَنَ فيه فيُحْدِثَ فرحاً واستبشاراً . ولكنه مع ذلك لا يثير سوى مشاعرَ مؤلمة ومتناقضة ، ويعود ذلك إلى ظروف مؤسفة خاصة ... لا أحدَ غيري يجرؤ على أن يسألَكَ عن مكان الرجُلِ

الذي ذكرتَ اسمَهُ .. نحن نعرفُ أنه اضطُرَّ ، بسبب المرض ، إلى البقاء في فلسطين بعد رحيلِ الجيشِ الانكليزي ، وانه تحمّلَ الاضطهادَ من قِبَلِ الفرنسيّينَ الذين يخالفهُم فرسانُ الكنيسة » . فأجاب الحاجّ بصوتٍ مضطرب :

— « إن معرفتي بالفارس آيفنهو قليلةٌ ، وأنا آسفٌ لأنني لم أعرِفْهُ جيداً ، ما دُمْتِ تهتمّينَ به .. أعتقدُ أنّه استطاعَ الإفلاتَ من قبضة مُضْطَهِديه ، وأنّهُ على وَشْكِ العَوْدَةِ إلى انكلترا ! » .

فزفرَتْ ليدي روينا وعادَتْ تسألُهُ عما إذا كان المَرضُ قد أثّرَ فيه ، وإذا كانَ في استطاعته أن يَحْمِلَ السلاحَ في مَوْعد المباريات . فقال إن آيفنهو أصبح نحيلاً وإنّهُ بادي القلق . ثم شكرَتِ الحاجّ وأعطتْهُ قِطْعَةً ذهبيةً .

عندما خرجَ قادَهُ الخادمُ ، الذي ظلّ في انتظارِهِ ، إلى حُجْرةٍ بين حُجْرَتَيْ غُورْث واليهوديّ ، في الجناحِ المخصّص للخدمِ والضّيوفِ من الدّرجة الثانية .

منذ ظهورِ الأشعّةِ الأولى لفجرِ اليومِ التالي كان الحاجّ خارجَ الفراش . وسُرْعانَ ما دخَلَ إلى حجرةِ اليَهوديّ ، وأيقظَهُ . ولما رآه وقد استبدّ به الهلَعُ ، قال لـه :

— « لا تخفْ ، يا إسحق ! أنا آتٍ إليك كصديق ..

أسرِعْ بمغادرة هذا المكان ، وإلا تعرّضَتْ حياتُك للخطر ! » . وأخبرَهُ بأنه سمعَ الفارسَ الراهبَ يقولُ لأتباعِهِ بأن يلحقوا بإسحق ويقبضوا عليه ، ويقودوهُ إلى قصرِ فيليب دي مالفوازان أو رجينالد جبهة الثور » .

ثم أخذَهُ ودخلَ به إلى حُجرةِ غورث . وصاح بغورث :

— « قم يا غورث ! .. إفتحْ لنا البابَ السرّيّ وأخرجْنا من هنا » .

قال غورث ، وقد ضايقَتْهُ لهجةُ الحاجّ الآمرة :

— « ماذا ؟ ! في هذه الساعة المبكّرة يَخرُجُ اليهوديّ ؟ ! .. ومعه الحاجّ أيضاً ! » .

قال « ومبا » ، الذي دخلَ في تلك اللحظة :

— « كنتُ أتصوّرُ أن يخرُجَ ومعَهُ فخذُ خنزير ! » .

وعاد غورث إلى الرّقاد وهو يقول :

— « يجبُ أن ينتظرَ كلٌّ منكما ريثما يُفتَحُ البابُ الكبير ! » .

فانحنى الحاجّ على راعي الخنازير وقال :

— « ستفعَلُ ما أقول لك ! » .

ثم همسَ في أذنِهِ ببضع كلمات باللغة السكسونية . هنالك ارتعدَ غورث ، فوضعَ الحاجّ إصبعَهُ على شفتيهِ قائلاً :

— « حذارِ ، يا غورث .. كُنْ كتوماً ! » .

وسارعَ غورث إلى تنفيذِ أمرِ الحاجّ وهو في غايةِ الحذَر . بينما اليهوديّ و « ومبا » ينظران بمنتهى الدّهش .

وصاح اليهوديّ :

— « بغلتي ! .. أينَ بغلتي ؟ إنني لا أستطيعُ أن أذهبَ بدونها ! » .

قال الحاج لغورث :

— « هات له بغلتَهُ ، وائتني بأخرى ، وسلّمها لرجال سدريك في « أشبي » .

وقفز اليهوديّ بخفّة فوقَ البغلة ومعَهُ كيس من المُشمّع الأزرق ، ادّعى أنه لا يشتملُ إلا على « ملابس للغيار ولا شيء غير ذلك » .

وعندما سارَ الرّجلان مدّ الحاجّ يدَهُ إلى غورث فقبّلها هذا باحترامٍ بالغ .

وبعد نصفِ ساعةٍ من المسير أشرفا على مدينة شيفيلد .

فقال الحاجّ :

— « سنفترقُ الآن ! » .

— « لن تذهبَ قبل أن تتلقّى شُكرَ هذا اليهوديّ المسكين .. كنتُ أودّ أن أكافئكَ ... » .

— « إنني لا أريدُ منكَ أيّ مكافأة .. إنّ أفضلَ ما تكافئني به هو أن تُنقذَ من السّجن والملاحقةِ واحداً

من المَدينينَ الذين يقعونَ في قبضتكَ . »

— « إنني أريدُ أن أخدمَكَ أنتَ شخصياً .. إنني أعرفُ ماذا تتمنّى الآن : إنك تتمنّى الحصولَ على جوادٍ وشكّة (عدة حربية) ! »

فنظر الحاجّ في عينَي اليهوديّ لحظةً ، ثم قال :

— « أيّ شيطانٍ يوحي لكَ بذلك ؟ .. ألا ترى إلى ثوبِ الحُجّاجِ الذي أرتديه ! »

— « لقد قلتَ بعضَ كلماتٍ أثارتني ، ورأيتُ تحت ثوبك ، هذا الصباحَ ، سلسلةً ومهمازَيْنِ من الذهب ، مما يستخدمُهُ الفُرسان ! »

— « لو أن عيناً متطفّلةً كعينَيكَ بحثَتْ في كيسكَ هذا ، يا إسحق ، فماذا كانتْ تجد ؟ ! » .

قال اليهوديّ بكثيرٍ من القلق :

— « صَهْ ، أرجوك ! » .

ثم كتبَ رقعةً باللّغة العبرية وقال له :

— « إنّ كلّ مدينة ليستَر تعرفُ الثّريّ كيرغاث جيرام اللمباردي .. إذهَبْ إليه وسلّمهُ هذه الرّسالة .. إنّ لديْه ستّ عُدَدٍ حربية من ميلانو وعشرةَ خيول تليقُ بالملوك فاخترْ منها ما يناسبُكَ وخُذْ ما يلزمُكَ من أجْلِ المباريات ، وعندَ انتهاءِ المباريات أعِدْ إليه الجميع » .

وشكرَهُ الحاجّ ثمّ افترقا .

٧. الفارس المحروم

منذُ الصباحِ الباكرِ كانت جماهيرُ غفيرةٌ تزدحمُ في مرْجٍ مترامي الأطراف ، يقَعُ على نحوِ ميلٍ من أشبي دي لاروش ، حيث تجري مبارَياتُ الفروسيةِ التي تستهوي انكلترا برُمّتِها .

كانت تلك الأرضُ الواسعةُ تتصاعدُ تصاعُداً بطيئاً من جميع الجوانب ، فيتكوّنُ منها مُدَرّجٌ حول المساحةِ المستطيلةِ التي خُصّصَتْ للمتبارزين . وفي شمالِ وجنوبِ هذا المستطيلِ بابانِ واسعانِ يَدْخُلُ منهما الفارسانِ اللذانِ سيتواجهان .

وراء البابِ الجنوبيّ كانت تنهض ، في أرضٍ منبسطة ، خمسةُ سُرادِقات رائعة للفرسان الخمسة الذين في يدهم زعامةُ الميدان . وكان السُّرادِقُ الأوسطُ للسّير « بريان دي بواجيلبر » ، الذي جعلَتْ منهُ شهرتُهُ كمحاربٍ من الطراز الأول رئيساً للفُرسان المُستَطرين على المباريّات . وكان سُرادِقُهُ يقَعُ على يسار سُرادِقَيْ « سير رنجينالد جبهة الثور » و « سير فيليب دي مالفوازان » . وعلى يمينِ سُرادِقَيْ « هيغ دي غرانتمينيل » و « رالف دي فييون » ، فارس القديس يوحنا المَقْدِسي .

أما في الجهة المقابلةِ من الميدان ، وراءَ الباب الشماليّ ، فتوجَدُ سُرادِقاتُ الفُرسانِ الذين يقومونَ بدَوْرِ المهاجمين . وكانت هناك خيامٌ أخرى لصُنّاع الأَرْدِيَةِ الحديديةِ الواقيةِ والمُبَيْطِرين (صانعي حدَوات الخيل) .

وحولَ الميدانِ خُصّصَتْ أماكنُ لطبقةِ النّبلاء وطبقات الأثرياء . أما المشاهدونَ من أبناء الشّعبِ ففي استطاعتهم أن يَنتشروا في المساحة الخلفيّة ، التي يستطيعونَ أن يرَوْا منها سَيْرَ المبارَزات ، نظراً لانحدارِ الأرض .

كانت المجالسُ مجموعاتٍ مجموعات ، وكانتْ أفخَمَها واحدةٌ جانبيّةٌ ، علَتْ على الأُخرَياتِ وزُيّنَتْ أفخمَ تزيين ووُضِعَ في وَسَطِها عرْشٌ تَعْلُوهُ مِظلّةٌ عليها الشّعارُ الإنكليزي .. وكان هذا العرشُ مخصّصاً للأمير جان والمقاعدِ التي حَوْلَهُ لحاشيةِ الأمير .

وفي مجموعةٍ أخرى على نفسِ مستوى المجموعة الأولى ، وُضِعَ عرشٌ آخرُ كُتِبَ على إحدى راياته الكثيرةِ أنه مخصّصٌ لمليكَةِ الجمالِ والحبّ .

وبدأ النُّبلاءُ والوجوهُ يتقاطرون ، ثم وَصَلَ الأميرُ حنا ، الذي كان يرتدي ثوباً قِرمِزياً مُطرّزاً بالذهب ، ويَعتَمِرُ قَلَنْسُوَةً من الفَرْوِ تحيط بها الأحجارُ الكريمةُ وتتدلّى من تحتِها خُصَلُ الشّعرِ الذّهبيّة . وكان الأميرُ

يحمِلُ على يدِهِ صَقْراً ، ويمتطي حصاناً جميلاً رماديَّ اللّونِ وقد سعَى في ركابِهِ عدَدٌ كبيرٌ من النبلاءِ ورجالِ الدين وفُرْسانِ الكنيسة ، وكذلك من البارونات اللصوصِ والمنحلّين الذين يلازمونَهُ في غدَواته وروْحاته .

وكان اليهوديّ إسحق ، الذي يرتدي الملابسَ الرائعة ، يحاولُ أن يجدَ له ولابنته مكاناً في المقاعدِ الأولى ، في حين كان ينهرُهُ نبيلٌ من النورمانديين .

وما إن دخلَ الأميرُ حتى لاحظَ اليهوديَّ ، فصاح وهو يقترب منه : « باسمِ القدّيس مارك : لا بُدَّ أن يجلسَ مُموّلي واليهوديةُ التي معه في هذا الجناح ... مَنْ هذه الحسناءُ التي معك ، يا اسحق ؟ » .

أجاب اليهودي دون حرَجٍ : « إنها ابنتي ريبيكا ! »

— سيكون لها مكانٌ لائقٌ بجمالها ! .. من يجلسُ في هذه الناحية ؟ .. أجلافٌ سكسونيّون ؟ .. ليوسعوا مكاناً لأميرِ المرابينَ وابنتِهِ الفاتنة ! » .

لم يكنِ الذينَ وُجّهتْ إليهم هذه الإهانةُ سوى سدريك السّكسونيّ وأُسْرتِهِ ، وصديقِهِ وحليفِهِ أثلستان دي كوننغسبرغ ، سليلِ آخرِ ملكٍ سكسونيّ في انكلترا . وكان أثلستان شاباً طويلَ القامة ، قويَّ البِنْيَة ، غير أنّه كان ثقيلَ الحركة ، بطيءَ التفكير ، حتى لقد أُطْلِقَ عليهِ لَقَبُ أحدِ أجدادِهِ ، وهو لقب

« التّنبل » . فلما سمعَ هذا الأمرَ المهينَ حملَقَ في الأمير حنا بطريقة مضحكة ، وهو لا يدري كيف يتصرّفُ ولا كيف يقاوِمُ . فقال الأميرُ لأحدِ النبلاء من مرافقيه :

— « إن راعي الخنازيرِ السكسونيَّ هذا إما أنّه نائمٌ أو لا يُريدُ أن يسمع .. أيقظْهُ ، يا دي براسي ، بحرْبتِكَ ! »

ورَغْمَ الهمْهمَةَ التي ثارتْ من الجالسينَ وجّهَ دي براسي حرْبتَهُ يُريد أنْ يطْعَنَ بها أثلستان ، الذي لم يكُنْ قد استقرَّ رأيُهُ بعْدُ على التحرُّك لتفادي الضّرْبة . إلا أنَّ سدريك سُرْعانَ ما جرّدَ سيفه وضرَبَ به القناةَ فقطعَها وسقَطَ السِّنانُ الفولاذيّ على الأرض .

هنالكَ ارتفعَ التصفيقُ من كلِّ ناحية ، مما زاد في غيْظِ الأميرِ وغضبِهِ ، فصاح في الرجلِ الذي كان ينْهَرُ اليهوديّ :

— « لمَ تُصَفّق ؟ »

— « إنني أصفّقُ دائماً لضربة مُحْكَمَة ، أو سهمٍ يُصيبُ الهدف ! » وأراد اليهوديُّ أن ينسحبَ حتى لا يتّسِعَ الخلاف . فأمَرَهُ الأميرُ بالبقاء ، وهو يقولُ وعيناهُ على سدريك الذي كان يوشكُ أن يهجمَ على الدّخيلِ :

— « منذا الذي يجرؤ على منعه ؟ » .

قال صوتٌ : « أنا ! »

كان ذلك المهرّج « ومبا » وقد حمل سيفَهُ الخشبيَّ بيد ، وباليد الأخرى قطعةً من لحم الخنزيرِ قرّبها من وجه اليهوديّ الذي تقهقرَ فزلّت قدَمُهُ فتدحرجَ من المدرّجِ حتى وصلَ إلى الأرض ، فضجّتْ جميعُ المدرّجات بالضحك . قال « ومبا » :

— « أيها الأميرُ ! لقد غلبتُ خصمي فامنحني جائزةَ المباراة ! »

قال الأمير مُلْغياً أمرَهُ الأول :

— « ليس من العدل أن يجلسَ الغالبُ والمغلوبُ في مستوىً واحد .. فليجلسِ اليهوديّ في الصفّ الأسفل » .

وما استقرَّ به المقامُ على عرشِه حتى صاح فجأة :

— « لقد نسينا أهمّ شيء في هذا اليوم : إننا لم نختَرْ ملكةَ الجمال والحب التي ستتوّجُ الغالبَ بيدها ! »

وكان بودّه أن يُعْلِنَ اسمَ ريبيكا ولكن حاشيتَهُ احتجّتْ بشدة ، فاستقر الرأيُ على أن يتولّى الغالبُ تعيينَ الملكة بنفسه .

ومن ثمّ أمرَ الأميرُ بأن يبدأ حُكّامُ المعركةِ بإعلان شروطِ المباراة . وكانتِ الشروطُ كالتالي :

أولاً : على الفرسان الخمسة المدافعينَ أن يَقبلوا بمنازلَة جميع مَنْ يطلبونَ منهمُ المبارزة ويتحدّونهم .

ثانياً : يُعَيِّنُ المهاجِمُ خصْمَهُ بلمْسِ تُرْسِه ،

فاذا كان اللّمسُ بخشب القناةِ فمعنى هذا أن تكونَ المبارَزَةُ خفيفةً بمعنى أن تزوّدَ رؤوسُ الأسلحة بخشب بحيث لا تَقتُل ، أما إذا لمس مِجَنّ خصْمِه برأس حَرْبَتِه ، فمعنى هذا أن المبارَزَةَ ستكون معركةً حربية بمعنى الكلمةِ بحيثُ تُعَرّى رؤوسُ الأسلحة .

ثالثاً : عندما يتمكّنُ الفرسانُ المدافعونَ من كَسْرِ خمْسِ قنَوات يُعْلِنُ الأميرُ الفائزَ لليوم الأول ، ويتلقى هذا الفائزُ حصاناً جميلاً كجائزة ، ويقوم بتعيين مَلِكَةِ الجمالِ والحب .

رابعاً : في اليومِ التالي تجري مباراةٌ جماعيّةٌ ، بحيث ينقسِمُ جميعُ المتبارين إلى فريقَيْنِ متساويَيْنِ يهاجِمُ الواحدُ منهما الآخَرَ ، وتتوقّفُ المعركةُ عندما يُلْقي الأميرُ عصا القيادة في ساحة المعركة . هنالك تضعُ مَلِكَةُ الجمال بيدِها إكليلَ غارٍ مُذَهّباً على رأسِ الفائزِ في المبارياتِ التي تَنْتَهي عندَ هذا الحدّ .

وبعْدَ أن انتهى مُعْلِنو المعركة من إذاعةِ هذه الشروط ، صاحوا : « السّخاءَ ، السّخاءَ أيها الفرسانُ الشُّجعان ! » .

فراحتْ تتساقطُ عليهم قِطَعُ النقودِ الذهبيةِ والفضيّة من الصفوفِ العُليا بين هُتاف الجماهير .

وأخيراً فُتِحَتِ الحواجزُ فتقدّمَ خمسةٌ من الفُرْسانِ

يرتدون لباس الحرب ، وقطعوا الساحة متوجهين نحو الفرسان الخمسة المدافعين ، فلمسوا تروسهم بأعقاب القنوات ، ثم عادوا إلى الجهة التي قدموا منها . هنالك انطلق كل من الفريقين للقاء الفريق الآخر ، فكانت الغلبة للفرسان المدافعين ، الذين كسروا رماح ثلاثة من المهاجمين .

وأعلن الحكام فوز المدافعين وارتفعت الأصوات بالهتاف ونفخ في الأبواق .

وهجمت مجموعة ثانية ثم ثالثة ، لم يكن حظها أفضل من حظ المجموعة الأولى . ويبدو أن الفوز المستمر للخمسة المدافعين قد أدى إلى فتور في همة الفرسان المهاجمين ، فلم يتقدم في الدورة الرابعة سوى ثلاثة من الفرسان ، تقصدوا ألا يصادموا بواجيلبر وجبهة الثور ، ومع ذلك باؤوا بالفشل .

وتبع الالتحام الرابع فترة انتظار وترقب . وبدأ الشعب يلغط لأن الفرسان الخمسة المدافعين لم يكونوا محبوبين ، وكان أبغضهم إلى الناس بواجيلبر وجبهة الثور اللذين يتميزان بكثير من القسوة والعنجهية .

وفيما كان الأمير حنا يتهيأ لإعلان النتيجة لليوم الأول بفوز بريان دي بواجيلبر انطلق صوت نفير واحد للتحدي . فاتجهت جميع الأعين نحو الحاجز

الذي انفتح ليخرج منه فارس يمتطي جواداً أدهم يتقدم بكبرياء ، إلى الساحة .

كان الفارس يحمل ترساً رسمت عليه سنديانة حديثة مقتلعة ، وكلمة واحدة باللغة الاسبانية تعني « المحروم » . وسرعان ما جذبت إليه ليونته ومهارته عطف المشاهدين وإعجابهم . واجتاز الساحة بين تصفيق الناس الذين استولى عليهم الذهول عندما رأوه يقرع ترس بريان دي بواجيلبر برأس رمحه .

قال الفارس الكاهن بتعال :

— « هل سئمت الحياة ؟ »

— « دع عنك هذا واطلب حصاناً مستريحاً ورمحاً جديداً ، لأنك ستجد نفسك محتاجاً إليهما عما قريب ! » .

كان الفارس « المحروم » يتحدث بمنتهى الهدوء . ومع أن بريان مملوء بالصلف فقد تبع نصيحة خصمه . فامتطى حصاناً نشيطاً يتفجر بالحيوية ، وحمل رمحاً جديداً ، وترساً رسم عليه غراب يحلق حاملاً بين براثنه جمجمة إنسان ، وقد كتب تحت الرسم : « احذر الغراب ! » .

وما إن أعطيت إشارة البدء حتى اندفع كل منهما نحو الآخر كالسيل ، وسرعان ما تطاير رمحاهما ، وكان اصطدام جواديهما أشبه بانفجار الصاعقة ، ولولا

المهارةُ الفائقةُ التي أبديَاها ، لأُلقِيَ كلاهما عن ظهر حصانه .

وعادَ كلٌّ إلى جهتِه حيثُ قدّمَ لها أعوانُهما رُمحَيْن جديدَيْن. ثم انطلقَ كلٌّ نحوَ الآخرِ عندما أعطى الأميرُ الإشارةَ . ولم يكنِ التحامُهما أقلَّ وقْعاً من المرةِ الأولى . إلاّ أنّ حرْبةَ الجنديّ الكاهنِ أصابَتْ في هذه المرّةِ تُرسَ الفارس « المحروم » في الوسَط . فدفعت الفارسَ حتى كادَ رأسُهُ يصلُ إلى مستوى ظهرِ جواده . عندَها وجّهَ الفارسُ «المحروم» رُمْحَهُ نحو رأسِ خصمه . ولعلّ خصمَهُ كان قد صمَدَ لهذه الضربةِ الخطيرةِ لولا أنّ حزامَ الحصان انقطع ، فوقعَ الفرسُ والفارسُ على الأرض . وسُرْعانَ ما تخلص بواجيلبير من الرّكابَيْنِ وانتصبَ واقفاً ، وقد امتشقَ حسامَه ، وسار نحو خصْمه ، الذي قفز بخفّةٍ عن ظَهْرِ الحصان ، وانتضى سيْفَهُ ، هو الآخر . ولكنّ حكّامَ المباريات خفّوا للتفريق بينهما . فهدَرَ بريان وقد أخذَ منه الغضبُ كلَّ مأخذ . :

— « سنلتقي مرةً أخرى حيث لا يُفرِّق بيننا أحد ! »

— « لن أتأخرَ عن مقابلتِكَ .. راجلاً أو راكباً ، بالسّيف أو بالرمح ، كما تشاء وتطلب ! » .

بعد هذا الانتصار وجّهَ الفارسُ المجهولُ التحدّي إلى الأربعةِ الآخَرين ، وهزمَهُمْ واحداً إثرَ واحدٍ .

هنالك أعلنَ الأميرُ والحكامُ فوزَ الفارسِ « المحروم » لليومِ الأولِ بين تصفيقِ المشاهدينَ وهُتافِهِمْ .

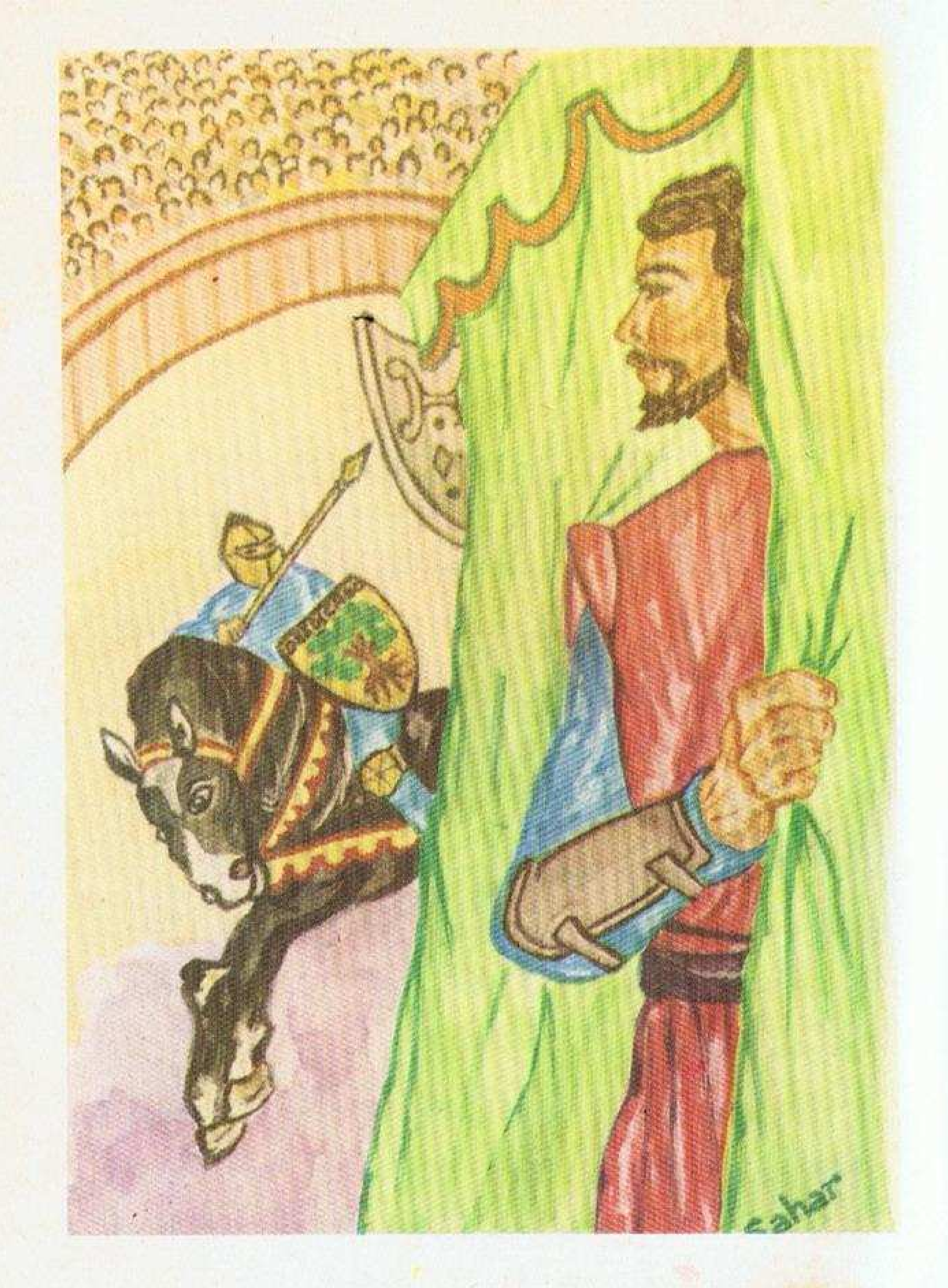
٨ . تاج الملكة

بمُنْتهى الرّقّة واللّطفِ اعتذر الفارسُ « المحروم » عن رَفْعِ خُوذَتِه وقِناعِه الواقي ، ليكشفَ وَجْهَهُ أمامَ الأميرِ جان . هذا التخفّي ملأَ قلبَ الأمير بالذّعر ، إذ خطَرَ لهُ أن يكونَ هذا الفارسُ هو أخاه ريتشرد قلْبَ الأسد . وانحنى الفارسُ أمامَ الأميرِ دون أن ينبِسَ بكلمةٍ بينما كان الحكّامُ يقودون إليه الجوادَ الرائعَ الذي فازَ بهِ كجائزةٍ لمبارياتِ اليومِ الأول .

وبعْدَ أن دارَ الفارسُ دَوْرَتَيْنِ حولَ الساحة جاء ووقفَ أمام الأمير ، الذي وَجّهَ إليه الخطابَ قائلاً :

— « أيها الفارسُ « المحروم » ، إليكَ الآنَ يعودُ الحقُّ في اختيارِ ملِكةِ الجمالِ والحُبّ ، التي ستَرئِسُ مِهْرَجانَ الغد . فخُذْ هذا التاجَ وسلّمه إلى التي تختارُها كي تضعَهُ غداً على رأسِ الفائز ! » .

بعْدَ هذا الحديث علّقَ الأميرُ في رأسِ رمحِ الفارسِ تاجاً من الحرير طُرِّزَتْ عليه أوراقُ الغارِ بخيوطِ الذهب .. فدار الفارسُ حَوْلَ الحلْبة وتوقّفَ تجاهَ الصفوفِ التي كانت تجلسُ فيها رُوينا، فاتّجهَتْ



الفارس المجهول يصيب درع بوجيلبير ٣

نحوها الأنظار . وظلّ واقفاً لحظات لا يتحرّكُ ثم حنى رُمحَهُ ووَضعَ تاجَ الانتصارِ عند قدمَيْ ليدي رُوِينا ، فانطلقتْ أصواتُ الأبواق ، وأعلنَ الحكّامُ ليدي رُوِينا ملكةً للجمال والحُبّ . فثارَ من جانب الفتياتِ النورمانديات ، لَغَطٌ واحتجاجٌ ضاعا بين الهُتافات من كل ناحية :

ـــ « عاشَت ليدي روينا .. عاشت ملِكةُ الجمال والحب ! » .

بل إن كثيراً من أبناء الشّعْب أضافوا : « عاشتِ الأميرةُ السّكْسُونية ! عاشَ أبناءُ ألفرد الخالد ! »

ورَغْمَ أن هذهِ الهُتافاتِ لم تَرُقْ للأمير جان ، فقد نزل عن عَرْشِهِ وامتطى فَرَسَهُ ثم جاء مقابلَ المقاعد التي كانت رُوِينا فيها ، وأمامَها التاجُ لم تَمَسّهُ بعدُ .. وقال :

ـــ « خذي أيّتُها السيدةُ الحسناءُ رمزَ السيادةِ مَشْفوعاً بتهانينا .. ويَسُرّنا أن ندعوك وصحبَكِ النبلاء إلى الوليمة التي سنقيمُها في قصر « أشبي » .

فلم تَرُدّ رُوِينا بشيء ، بل تولّى الرّدّ عنها سدريك الذي تحدّثَ باللغةِ السّكسونية فاعتذرَ عن الفتاة التي تجهلُ لغةَ الأمير ، كما اعتذرَ عنها لعَدَمِ تمكّنها من حضور المأدُبة . وبعد أن قال هذا وَضعَ التاجَ على رأس الفتاة .

والتفتَ الأميرُ نحوَ الفارسِ « المحروم » وسألَهُ :

— « وأنت ، أيها السيّدُ الفارس ، هل ستحضُرُ مأدُبتنــا ! » .

فاعتذر الفارسُ أيضاً عن الحضور ، مبرّراً ذلك بتعبه ، واضطراره إلى الاستعداد لمباريَات اليوم التالي .. وهذا ما أثارَ غضبَ الأمير .

بعد ذلك انسحبَ الفارسُ المحرومُ إلى الخيمة التي وُضعَتْ تحت تصرّفه ، حيث انفردَ بتابعه الذي وَضعَ على وجههِ قناعاً كالذي يستخدمُهُ النورمانديون . قال له :

— « خُذْ ، يا غورث ، هذا الكيسَ ، واذهَبْ إلى أشبي وأعطِه إلى اليهوديّ إسحق اليوركيّ ثمناً للدّرْعِ والأدَوَات الحربية الأخرى .. »

وقد نفّذَ غُورْث أمرَ الفارسِ « المحروم » ، فأعادَ الفَرَسَ إلى اليهوديّ وأعطاهُ ثمنَ السّلاح ، في الوقت الذي كان فيه إسحقُ يعَضّ أصابعَ النّدمِ لأنّه أقرَضَ مسيحياً . إذ لا يُنتَظرُ أن يَرُدّ مسيحيّ دَيْناً إلى يهوديّ .

كان اليهوديّ ينزِلُ عندَ أحد أصدقائه في أشبي . وعندما تركه غورث وأراد العودةَ من حيثُ أتى ، لاقتْهُ وهو خارجٌ امرأةٌ وأشارتْ إليه أن يتبعَها ، فأدخلَتْهُ حُجْرَةً وَجدَ فيها « ريبيكا » .

قالت ريبيكا لغورث :

— « لقد أراد والدي أن يمزح معك ، فهو مدين لسيدك بأضعاف ثمن الدرع .. كم دفعت إليه ؟ » .

— « ثمانين سكيناً » (عملة ذهبية إيطالية قديمة) .

— « خذ هذا الكيس ، فهو يحوي مئة سكين .. رد إلى سيدك الثمانين وخذ أنت ما تبقى .. إذهب بسرعة ، وكن حذراً وأنت تجتاز المدينة ! » .

ثم صاحت على خادم ملتحٍ كالأشوريين :

— « روبين ، وجه هذا الغريب ، ثم أقفل الباب وراءه بإحكام ! » .

ولما عاد غورث إلى خيمة سيده نام على بابها مستعرضاً ، حتى لا يتسلل إليها أحد دون أن يعثر به ويوقظه .

٩ . بطل المباريات

أشرقت شمس اليوم التالي في سماء صافية الأديم .. كان ذلك يوم الالتقاء العام ، حيث ينقسم جميع الفرسان إلى فريقين ، يقود أحدهما بريان دي بواجيلبير ، ويقود الآخر الفارس « المحروم » . الذي فاز بإعجاب الجمهور كما فاز بمباريات اليوم الأول .

وقد تجمع نحو خمسين فارساً تحت علمي الخصمين .

وحوالي الساعة العاشرة وصل الأمير حنا وحاشيته ثم وصلت ليدي روينا ومعها سدريك السكسوني . وقد استقبل الأمير ليدي روينا بمنتهى الاحترام واللطف ، وقادها بصورة استعراضية إلى عرشها الذي أقيم مقابل عرشه . وما إن جلست الملكة حتى نفخت الأبواق ، وراح الحكام يعلنون شروط المباراة التي من شأنها أن تقلل الإصابات قدر الإمكان . وتتوقف المعركة عندما يلقي الأمير عصا القيادة في الساحة .

وأعطيت الإشارة ونفخت الأبواق ، فتحركت تماثيل الحديد نحو بعضها في قعقعة يمكن أن تسمع من مسافات بعيدة . واصطدم الصفان الأولان ببعضهما في وسط الحلبة ، محدثين صوتاً كقصف الصواعق . وعندما انجلى الغبار رأى المشاهدون أن نصف الفرسان قد سقطوا عن ظهور الجياد ، وأن عدداً منهم قد أصبحوا عاجزين عن مواصلة المعركة . أما الذين استطاعوا أن يصمدوا أمام هذه الصدمة الأولى ، فقد جردوا سيوفهم ، لأن حراب الجميع قد تحطمت .

وأصبحت الضجة في أوجها عندما تحرك الصف الثاني من الجهتين . وظل مصير المعركة فترة طويلة غير واضح ، لأن الفريقين كانا يبديان ضروباً من المهارة والشجاعة . غير أن عدد المتبارين كان يتناقص

لحظةً بَعْدَ أخرى . ولمّا لم يَعُدْ سوى عدد قليلٍ تمكّنَ الفارسُ الكاهنُ والفارسُ « المحروم » من أن يلتقيا ، بعْدَ أن حاولا اللقاء عبثاً قبْلَ ذلكَ . وقد استمرّت المبارَزةُ بينهما مدّةً طويلةً دُونَ أن يتفوّق واحدٌ على آخر ، لأنّ كلاً منهما لا يَقِلّ عن صاحبِه شدّةَ بأسٍ وطُولَ باعٍ في فنونِ الحربِ والنزال .

ولكنّ « جبهة الثور » ، بعد أن تخلّصَ من الخصوم الذين كانوا يناجزونَه ، هجَمَ على الفارسِ « المحروم » ليساعِدَ بواجيلبير عليه ، ويحقّق النّصْرَ لفريقِه . فصاح المشاهدون :

— « خُذْ حِذْرَكَ ، أيها الفارسُ المحروم ! » .

وبفضل هذا التنبيه استطاعَ أن يتفادَى هجمةَ جبهة الثورِ بما أوتِيَ من خفّة وسُرعة في الحركة . ولكنّ هذه المعركةَ غيرَ المتساوية ما كانت لِتستمرّ طويلاً . وطلبَ النبلاءُ من الأميرِ أن يُلقي عصاه ليجنّبَ هذا الفارسَ الباسلَ هزيمةً محقّقةً . فأجاب الأميرُ بأنّ الفارسَ المحرومَ قد فازَ بالأمس ، ولذا يجبُ أن تُترَكَ الفرصةُ اليومَ لغيره . غيرَ أنّهُ حدَثَ في تلك اللحظةِ شيءٌ غيّرَ اتجاه المعركة . فقد كان بين جماعةِ الفارسِ المحرومِ فارسٌ يرتدي شكّةً سوداء ويمتطي حصاناً أدهمَ ويحمل تُرساً ليس عليه رمزٌ ولا شعار . وقد

ظل هذا الفارسُ طوالَ الوقت مكتفياً بمدافعة المهاجمين دون أن يهاجمَ أحداً ، كأنّهُ غيرُ مكترث للمعركة ، حتى أن المشاهدينَ لقّبوهُ بالكسلانِ الأسود .

هذا الفارسُ ما إن رأى الفارسَ المحرومَ في وَضْعِهِ الدقيق ذاك حتى همَزَ جوادَهُ بالمهمازَيْن معاً فانطلق به يسابقُ الريح . وهجمَ على جبهةِ الثور الذي كان يرْفَعُ سيْفَهُ ليضربَ به الفارسَ المحروم . ومـا هيَ إلا طَرْفَةُ عينٍ حتى تدحرج جبهةُ الثورِ هو وفرسُه . وعاد « الكسلانُ الأسود » إلى رُكْنِه .

ولم تَطُلِ المعركةُ بين بريان والفارسِ المحروم ، ذلك أن فرَسَ بريان سُرْعانَ ما هلَكَ ، لكثرة ما سالَ منهُ من الدماء ، فوقعَ الجنديّ الكاهنُ ولم يَستَطِعْ أن يخلّصَ قدَميْه من الرّكاب . فقفزَ الفارسُ المحرومُ من فوقِ حصانه وجرّدَ سيفَهُ طالباً من بواجيلبير أن يستسلمَ . إلا أنّ الأميرَ سارعَ إلى إلقاء عصاهُ حتى يُنقِذَ الفارسَ الكاهنَ من الاستسلام .

وانتهتِ المبارَياتُ بفوزِ الفارسِ المحرومِ ، الذي صفّقَتْ له جماهيرُ المشاهدينَ وحيّتْهُ بالهُتافات ، وقادَهُ حُكّامُ المباراة أمامَ عرشِ ليدي رُوينا .

فهبطتِ الملكةُ درَجاتِ العرشِ لِتضَعَ التاجَ على رأسِ الفارسِ المنتصر . هنالكَ جرّدَ الحُكّامُ الفارسَ

من قناعه الحديدي ، فظهر وجه لوحته الشمس في إطار من الشعر الأشقر . فشهقت ليدي رُوينا ، ولكنها تمالكت نفسها ، ووضعت التاج على رأس الشاب وهي تقول : « إني أمنحك هذا التاج ، أيها السيد الفارس ، تقديراً لبطولتك ! لم يوضع قط تاج فارس فوق جبهة كريمة كهذه الجبهة » .

فانحنى الفارس وقبل يد الملكة الشابة ، وفجأة وقع على الأرض .

وقد ساد الوجوم جميع الناس . أما سدريك فقد استولى عليه الذهول وهو يرى ابنه الذي طرده . وقد عرف حكام المباراة سبب الإغماء الذي أصيب به آيفنهو ، فسارعوا إلى فك درعه ، وتحرير جسده من السجن الحديدي . وكانت إحدى الحراب قد اخترقت درعه وأصابته بجرح بليغ في جنبه .

١٠ . الرماية

راح رجال الأمير يعلقون على النصر الذي أحرزه آيفنهو ، فقال دي براسي :

— « على جبهة الثور أن يستعد الآن لإعادة إقطاعة آيفنهو التي اغتصبها » .

وقال « ولدمار فيتزورس » ، أحد المقربين من

مستشاري الأمير وأصحاب الرأي المسموع :

— « لا بد أن يطالب هذا الشاب بأرضه التي أقطعه إياها ريتشرد ، والتي جئت أنت فحولتها هبة إلى جبهة الثور ! » .

قال الأمير :

— « أوليس من حقي أن أهب أراضي التاج إلى من أشاء من أتباعي المخلصين ؟ » .

وعاد فيتزورس يقول :

— « على أي حال لن يطالب آيفنهو بأرضه لأنه مصاب بجرح خطر ! » .

وقال الأمير :

— « إن ملكة الجمال والحب كانت بالغة التأثر من هذا الحادث .. يحسن بنا أن نسري عنها بتزويجها من أحد النورمانديين .. ماذا تقول ، يا دي براسي ، في امرأة جميلة وأرض واسعة ؟! في انتظار ذلك أدع هؤلاء السكسونيين المتكبرين إلى مأدبتنا .. ولكن تلطف حتى لا يرفضوا الدعوة هذه المرة ! » .

في تلك اللحظة قدمت رسالة إلى الأمير ، فلما سأل عمن أرسلها ، قيل له إنها مرسلة من الخارج وقد حملها رجل فرنسي جاء من أجلها مواصلاً سيره في النهار والليل . ونظر الأمير إلى

العنوانِ والختْم فرأى الختْمَ على شكل ثلاثِ زنابقَ ، فراح يفضُّها باضطراب ما لبث أن تزايدَ عندما قرأ هذه العبارةَ : « خُذْ حِذْرَكَ . الشيطانُ حطّمَ القيودَ ! »

وشَحُبَ وجهُ الأميرِ وراحَ يُديرُ في جلسائه نظراً زائغاً ، كمن سمِعَ حُكْماً عليه بالإعدام . وبعدَ أنِ التقطَ أنفاسَه ، عرَضَ الرسالةَ على دي براسي وفيتزورس . قال الأولُ إنها فعلاً من فرنسا . وقال الثاني :

— « علينا أن نتجمّعَ في يورك أو في أيّ مدينة أخرى من وسط البلاد.. وإذا تأخّرْنا ضاعَ منا كلّ شيء! .. النهارُ لم يتقدّمْ .. لِننْهِه من مباراة مُطْلِقِي النبّال .. ليُطْلِقوا بضعةَ سِهامٍ ولْنُوزّعِ الجوائزَ على جَناحِ السّرعة ! » .

قال الأمير :

— « إنكم تذكرونَ أنّ علينا ديْناً يجبُ أن نُصفّيَهُ مع ذلك الفلاحِ الوقحِ الذي أهاننا أمسِ ! ثم إن مأدُبتَنا ستُقامُ هذا المساء ! لو بقيَ من حُكمي ساعةٌ واحدةٌ لَخصّصْتُها للذّة والانتقام .. دعُوا الشؤونَ الهامّةَ إلى الغدِ ! » .

وأعلنَ الحكّامُ أنّ الأميرَ قرّرَ أنْ تتِمّ مباراةُ الرّماية في الحال ، وأنّ الفائزَ ستكونُ جائزَتُهُ عبارةً عن بُوقٍ للصّيْد من الفضّةِ وتُرسٍ فِضّيٍ مُرَصّعٍ

بصورةِ القديسِ هيوبرت ، حارسِ الصيادين .

من بين الرّماة الثلاثينَ الذين تقدّموا في البداية لم يجْرُؤْ سوى ثمانية على الدّخول في المباراة . ونظرَ الأميرُ مفتّشاً عن الرامي الذي طرَدَ اليهوديَّ بالأمسِ وتحدّى أمرَهُ فوجدَهُ في نفس المكانِ الذي كانَ يجلِسُ فيه في اليومِ السابق . قال له الأميرُ :

— « كنتُ متأكّداً من أنكَ لن تتقدّمَ إلى المباراة لأنكَ لستَ صديقاً للقذّافةِ » . (قوس قديمة لإطلاق السهام والحجارة) .

قال الرّجل :

— « لم نتعوّدْ ، أنا وهؤلاء الرّماة ، أن نُطلِقَ على نفسِ الهدف .. ثم إن سعادتَكَ لن تكونَ مسروراً من أن ينالَ الجائزةَ الثالثةَ أيضاً شخصٌ لا ترضى عنه ! »

— « ما اسمُكَ ؟ » .

— « لوكسلي ! » .

— « إسمَعْ ، يا لوكسلي ! لسوفَ تشترِكُ في الرّماية ، فإنْ أصبتَ الهدفَ أضفتُ إلى جائزتكَ عشرينَ ذهباً ، وإن أخطأتَ جرّدْتُكَ من ثوبكَ الأخضرِ وطرَدْتُكَ من الحلْبةِ تحت الضّربِ بأوتارِ القوس ! »

— « ليس هناكَ أيّ تناسب بين الثوابِ والعِقاب .. ولكنّني سأطيعُ الأمرَ على كل حالٍ ! » .

عندئذ وُضِعَ تُرْسٌ على مسافة بعيدة من المتبارين .
وبدأ الرماةُ الثمانيةُ يُطلقونَ نبالهم .. فرمى كلٌ منهم ثلاثةَ سهامٍ ، لم يُصِبْ الهَدَفَ منها سوى عشرة ، منها سهمان اثنان أطلقَهما هيوبرت ، مرافقُ فيليب دي مالفوازان في الصيد . فأُعلِنَ أنه هوَ الفائز .

قال الأمير للنابل لوكسلي بلهجة ساخرة :

— « هل تقبلُ التباري مع هيوبرت ؟ »

— « أجل .. ولكنْ بشرطٍ واحد هو أنني بعد أن أطلقَ سهمين على الهدف الذي يحدّدُه لي ، عليه أن يطلق ، هو بدوره ، سهماً على هدفٍ أحدّدُه أنا ! » .

واستبدل بالتّرس السابق تُرساً جديداً ، فأطلق هيوبرت سهمَهُ الأولَ الذي انغرزَ داخلَ الدائرة المرسومة على التّرس . وقال له لوكسلي :

— « إنك لم تنتبه إلى اتجاه الريح ! » .

ودون أن يبدُوَ كأنه يصوّبُ أطلق هو بدَوْره ، فجاء سهمُهُ أقرب إلى مركزِ الدائرةِ من سهم هيوبرت بمقدار إصبعَيْن .

في المرة الثانية سدّدَ هيوبرت بدقّة فجاءت نبلَتُهُ بالضبط في مركز الدائرة ، فحيّاهُ الجمهورُ بالتصفيق والهُتاف . فصاحَ الأميرُ متهكّماً :

— « إنني أتحدّاك ، يا لوكسلي ، أن تُطلِقَ بمثل

هذه البراعة ! » . قال لوكسلي :

— « هذه المرة سأصيبُ السهم ! » .

ثم سدّدَ وأطلقَ ، فإذا بسهمه يحطّمُ سَهْمَ هيوبرت .
والتفت لوكسلي إلى الأمير وقال :

— «أطلبُ الآن من سعادتك أن أزرعَ هدفاً في الأرض ، كعادة أهل الشمال ! »

ثم ذهبَ فقطعَ قضيباً من شجرة صفْصاف ثم راح يقشُرُهُ حتى بات دقيقاً ، فغرزَهُ في الأرض عند آخرِ الحلْبة . وعندما رأى هيوبرت ذلك رفضَ أن يقومَ بالتجربة قائلاً :

— « إن التصويب إلى هذا القضيبِ الدقيقِ المُهتزِّ الذي لا أكادُ أراهُ ، أشبَهُ بالتصويب إلى قشّةٍ أو شُعاعٍ ! » .

أما لوكسلي فقد أخذَ قوسَهُ وصوّبَ ، ثم أطلقَ السَّهْمَ فإذا بالقضيب يُصْبحُ قطعتين على الأرض .

وهنا بلغت الحماسةُ بالنّاسِ أوْجَها ، حتى إنَّ الأميرَ نفسَهُ تأثر بالشعورِ العامّ فقال للوكسلي :

— « إلى جانب القِطَعِ الذّهبيّة العشرينَ التي كسبْتَها مع البوق بفضل مهارتكَ العظيمة ، سأدفعُ إليك خمسينَ أخرى إن وافقْتَ على الانخراط في حرَسي الخاص ! »

— « إنني أشكرُكَ جزيلَ الشكرِ أيها الأميرُ النبيل ،

إلا أنني أقسمتُ ألا أدخلَ في خدمةِ أحد غيرِ شقيقك العظيم ، الملك ريتشرد .. أما العشرونَ ذهباً فإنني أتخلّى عنها لهيوبرت الذي تأخّرَ عن التجربة لتواضعِه ، لأنّه قادرٌ على إصابة هذا الهدفِ كما أصبتُهُ ! »

ومن ثمّ أعلن الأميرُ حنا انتهاءَ المباريات ، وأرسل حاجبه ، على جَناح السّرعة ، إلى أشبي ليطلبَ من اليهوديّ اسحق ألفَيْ قطعةٍ ذهبية ، ويأتيه بها قبل المساء .

١١ . خطط دي براسي

لم يحدُثْ أن عنكبُوتاً وجدَتْ من العناء في ترقيع بيتها مثلما وجد « ولدمار فيتزورس » في تجميع أنصار الأمير حنا المبعثرين . لقد لجأ معهم إلى جميع الحيَل والأساليب ، ببراعة فائقة ، من أجل أن يُقْنعهم بأن مصلحتَهُم تقضي بأن يظلّوا على إخلاصهم للأمير حنا وأن يتجمعوا حوله . وبهذه الطريقة حملَ الغالبيةَ منهم على التوجّه إلى مدينة يورك ، لإجراء الترتيبات الضرورية لتتويج الأمير حنا شقيق ريتشرد .

وفيما كان عائداً إلى قصر « أشبي » ، راضياً عن النتيجة التي حققها رغمَ ما تحمّلَهُ من المشاقّ ، صادف دي براسي وهو يرتدي اللباسَ الأخضرَ ويضعُ على رأسه غطاءً من الجلد،ويعلّق خنجراً في وَسطِه وبوقاً على

كتَفيه ، ويحملُ بيده قوساً ، وعلى جانبه جعْبةٌ من السهام : لقد تحوّلَ الفارسُ النورمانديّ إلى أحد المُلاّك الانكليز . قال له فيتزورس غاضباً :

— « ما معنى هذا التهريج في الفترة العصيبة التي نجتازُها ؟ »

— « إنني أفكر في مشاريعي الخاصة ، يا عزيزي فيتزورس . فقد تنكّرْتُ ، كما تراني ، لأنني أريد أن أخطفَ رُوينا الحسناء ، هذه الليلةَ ، حيث تغادرُ أشبي في صحبة قطيعِها من الخنازير السكسونيين . إن لي بينهم جواسيس موثوقاً بهم . غداً سننقَضّ عليهم كالعُقْبان ، ثم أظهرُ بشكلي الاعتياديّ فأخلّصُ الحسناء من أيدي الذين يقومونَ بدور الخارجين على القانون ، وآخذُها إلى قصر جبهةِ الثور ، أو حتّى إلى نورماندي . ولن أعيدَها إلى أهلها إلا متى أصبحت زوجةً لموريس دي براسي » .

— « يا لهَا من خطّة بارعة ! ولكنْ قلْ لي هل وضعْتَها بمفردِك ؟ ألم يساعدْك فيها أحد ؟ لا تُخْفِ عني ! »

— « ساعدَني الكاهن الجنديّ بريان دي بواجيلبير ! إنه سيقومُ ، هو ورجالُهُ ، بدور الخارجين على القانون الذين سأخلّصُ السيدة من بين أيديهم » .

— « كم أنا مُعْجَبٌ بما تتمتّعُ به من حذَرٍ وبُعْد نظر ، يا دي براسي ، إذ تأتمنُ حليفَكَ على هذه الفتاة !

أنت تستطيعُ أن تأخذَها من بين أصدقائها السّكسونيين ،
أما أنْ تَنْتَزِعَها بعد ذلك من بين مخالب الكاهنِ الجنديّ ،
فهذا موضعُ شكٍّ عندي ! »

— « إنه كاهن ولا يستطيع أن يتزوج ليدي رُوينا ! »

— « ما دمتَ لا تريد أن تستمعَ إلى نصيحتي فافعَلْ
ما تشاء .. ولكنْ لا تُضِعْ وقتاً طويلاً في هذه المغامرةِ
الرّعناء ! » .

١٢ . الناسك الضاحك

بعد أن تدخّلَ « الكسلانُ الأسود » في المباراة ،
وساعد آيفنهو على النصر ، انسحبَ من الحَلْبة دون أن
يلفتَ إليه الأنظار ومضى في الطريق المتّجهة نحوَ الشمال .
سار طولَ النهار ، وقضى ليلةً في نُزُلٍ صغير ، ثم
تابع مسيرَهُ ، منذُ فجرِ اليوم التالي ، عَبْرَ الغاباتِ
الشاسعة . وفي هذه الغابات تتشعّب الطُرُق ، لهـذا
وجد صاحبُنا نفسَهُ ، عندما أقبلَ الليل ، بعيداً عن
أيّ مَسْكن . ولما كان لا يعرف إلى أين يوجّهُ خُطاه
في تلك الظُلْمة ، تركَ الأمرَ لجوادِه يسيرُ به كيفما
تقودُهُ غريزتُه .

وما إن شعرَ الجوادُ بأنّ لجامَهُ أصبح حولَ رَقبتِه
حتى أسرعَ الخَطْوَ في طريقٍ كانت تتّسِعُ شيئاً فشيئاً .

ولم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى تناهى إلى سَمْعِ الفارس
صوتُ جَرَس . وبعد أن قطعَ الجوادُ به عطفةً أخيرةً
رأى نفسَهُ في مكانٍ متّسِعٍ تتباعدُ فيه الأشجار ،
ورأى ، عند مُرْتَفَعٍ صخري صعبِ المُرْتَقى مُعَرَّضٍ
للرياح ، كوخاً مصنوعاً من جذوع الأشجار . وعلى
مَقرُبةٍ من الكوخ كان يجري جدولٌ بجانب كنيسة
صغيرةٍ خرِبةٍ ما زال في برجها المنخفض جرسٌ يدقّ
كلّما حركته الريح. كان هذا هو الجرسَ الذي سمعَ الفارسُ
صوتَهُ من بعيد .

وقرع الفارسُ باب تلك الصَوْمَعَة بعَقِب رُمحه ،
فانفتح البابُ وظهر فيه راهبٌ طويلُ القامة متينُ البنْية ،
على رأسه الغطاء المتصلُ بمُسُوحه ، وعلى وسطه حبلٌ
من أعشاب الأَسَل . وكان يحمل شمعةً بإحدى يدَيْه ،
وباليد الأخرى عَصاً طويلةً غليظة . وكان هناك كلبانِ
شرِسانِ متأهّبانِ للانقضاضِ على الطارق الغريب .

عندما رأى الراهبُ خُوذَةَ الفارس ومهمازَيْ الذهب
في قدَميه ، داخلَهُ شيءٌ من الاطمئنان ، فهدّأ ثائرةَ
حارسَيْه الغاضبين ، ودعا المسافرَ إلى الدخول بأدب
لا يخلو من الجلافة . ثم قال مشيراً بإصبعهِ إلى رُكْنَيْن
من الكوخ :

— « ههنا الاصطبلُ وهناك مَرْقَدُك ! » ثم أضاف



ربيكا تحاول إلقاء نفسها من أعلى البرج ٤

وهو يضع بَعْضاً من الحِمَّص الجافّ على المائــدة :
« وهذا عشاؤك ! » .

عندها خلعَ الفارسُ دِرْعَهُ وقِناعَهُ ، فرأى الراهبُ رأساً صُلْباً يغطّيه شَعْرٌ أشقرُ كثيف ، وعينين زرقاوين برّاقتين لهما نظراتٌ نفّاذة .

ولكي يجيبَ الراهبُ بثقة على ثقة رفع عن رأسه القَلَنْسُوَةَ الواسعة فبدَتْ لحيتُهُ السوداء المتموّجَةُ التي تغطّي جزءاً من خدّيه الموَرَّدَيْن الممتلئين . ورغم الدائرةِ الحَليقة في رأس هذا الكاهن لم تكن تبدو عليه آثارُ التقشّف والحرمان ، بل إنّ وجهه ، الذي ما زال يتمتّعُ بنضارة الشباب ، كان يَنِمّ عن الجرأة والاعتدادِ بالنفس . قال الفارس :

ـــ « أيها الأبُ المحترم ! لا بُدّ أن يكونَ لهذا الحِمَّص مفعولٌ سحريّ ، لأنني أرى أنك ممتلىء صحةً وقوةً ، حتى ليخيّلَ للناظر إليك أنك أصلحُ للصَّيْد والقتالِ منك لتلاوة الصّلَواتِ داخلَ صَوْمعة ! » .

ـــ « السببُ في ذلك هو أن العذراء والقديس « دانستان » قد باركا هذا الغذاء المتواضعَ الذي اكتفي به ! » .

ـــ « أتسمحُ أيها الأبُ القدّيس ، لخاطىء مسكين أن يسألَ عن اسم الرجلِ الذي أوتيَ هذا الفضلَ العظيم ؟ »

ـــ « الناس يدعونني هنا براهب كوبمانهارت ،

ويضيفونَ أيضاً صِفَةَ القدّيس ، ولكنني لا أتمسّكُ بهذه الصفة ، لأنني لا أجد نفسي جديراً بها .. وأنت ، أيها الفارس الشجاع ، هل لي أن أسألكَ عن اسم ضَيْفي ؟ » .

— « إنهم يدعونني هنا بالفارس الأسود ، ويضيفون إليها صفة « الكسلان » ، التي لا أتمسّكُ بها ! »

فلم يتمالكِ الراهبُ نفسَه من أن يبتسم .. قال :

— « إنني أرى ، أيها السيّد الفارسُ « الكسلان » ، أنك رجلٌ عاقلٌ وحكيم ، كما أرى أنكَ لا تستسيغُ طعامَ الرّهبان لأنك متعوّدٌ على رَفاهية المدن .. أذكر أن حارسَ الغابات عندما تكرّمَ عليّ وأعطاني هذين الكلبَيْن ، والعلَفَ الذي يلتهمُهُ فرسُك الآن ، تركَ لي أيضاً بعضَ الطعام الذي لم أمَسّهُ ، تمسّكاً بعادة التقشف ، والذي نسيتُهُ لأنني كنتُ مستغرِقاً في تأملاتي ! »

— « لِنرَ هديّةَ هذا الحارس ! » .

ففتح الراهب ، بعد تردّد ، خزانةً سرّيّةً في الجدار وأخرجَ منها فَطيرَةً كبيرة ، فأقبل عليها الفارسُ بنَهَمٍ ، بعد أن قَطَعَها بخَنْجرِه . ثم توقّف وقال للراهب :

— « أعتقدُ أنّ العادةَ في فلسطين ، التي زُرْتُها ، أن يَذُوقَ المضيفُ الطعامَ قبل أن يقدّمَهُ إلى ضيوفه حتى يُثْبتَ لهم أنه لا يحتوي على شيء ضارّ .. ومع

ثقتي بك يسرني أن تتقيد بهذه العادة ! »

قال الراهب وهو يغوص بأصابعه داخل الفطيرة :

— « إنني أتنازل عن عادتي في التقشف من أجل إرضائك فقط ! » .

وهكذا ذاب الجليد بين الراهب والفارس فراح كل منهما يأكل بشهية . ورغم أن الفارس قد قضى وقتاً طويلاً لم يأكل خلاله ، فقد سبقه الراهب بمراحل .

قال الفارس :

— « أيها الراهب الحكيم ! إنني أراهن بفرسي مقابل « سكين » واحد على أن الحارس الهمام ، الذي ندين له بهذه الفطيرة اللذيذة ، قد ترك زجاجة لمرافقة الفطيرة .. بالطبع هذه الزجاجة ليس من شأنها أن تشغل بال رجل زاهد متعبد .. ولكن فتش جيداً وسترى أنني لم أخطىء في ظني ! » .

فابتسم الراهب، ثم قام فأخرج من نفس الخزانة قربة من الجلد تتسع لثماني زجاجات ، وجاء معهـا بكوبين كبيرين ، من قرن الثور البري ، تحيط بهما دوائر من الفضة ، فملأهما ، ورفع كأسه وقـال باللغة السكسونية :

— « على صحتك ، أيها السيد الفارس الكسلان ! »

وشرب الكأس عن آخرها دفعة واحدة ، فأجابه

الفارس على ذلك ، ثم قال :

— « إنه ليدهشني أن أرى رجلاً مثلك يرتدي لباس الرهبنة . يخيل إلي أنه أليق بك أن ترتدي ثوب المحارب وتأكل الطعام دسماً وتكرع الخمر صرفاً .. لو كنت مكانك لما تأخرت عن قنص وعل ، بينما يكون الحرس نائمين .. بحقك ، ألم تفعل ذلك ، أيها الراهب القديس ؟ » .

— « هذا السؤال ، أيها الصديق الكسلان ، زائد عن الحد .. إشرب دون أن تسأل ، وإلا أثبت لك أنك ما كنت لتستطيع الدخول إلى هنا ، لو شئت ألا أستقبلك ! » .

— « إن هذا لما يثير فضولي ! إنك أعجب راهب صادفته في حياتي ! أما عن تهديدك فاعلم أنني رجل متعود على مجابهة المخاطر ! » .

— « على صحتك أيها الفارس الكسلان ! إنني أقدر بأسك ، ولكنني أرى أنك فضولي . وإذا كنت تريد أن تتبارى معي بأسلحة متشابهة ففي استطاعتي ، بكل صداقة ، أن ألقنك درساً يمنعك ، خلال اثني عشر شهراً على الأقل ، من الوقوع مرة أخرى في خطيئة الفضول .. ما قولك بهذه اللعب ؟ » .

قال هذا وهو يفتح خزانة أخرى في الحائط ويخرج

منها سيفَيْن صَقيلَيْن وتُرْسَيْن . وقد رأى الفارسُ في الخزانةِ عِدّةَ أقواسٍ وقَذّافةً وعَـددا كبيراً من السِّهام . كما رأى قِيثارةً وأشياء أخرى ليس من عادة الرّهبان أن يَقْتَنوها .

قال الفارس :

— « لن ألقيَ عليك أيّ سؤال فيه فُضولٌ بعد الآن ، ففي هذه الخِزانةِ ما يُغنيني عن كافّةِ الأسئلة التي يَخْطُرُ لي أن أطْرَحَها .. على أيِّ حالٍ أرى هنا قيثارةً ، ففي إمكاني أن أباريَكَ في العَزْفِ عليها » .

— « كما تشاء ! هيا بنا نشربُ ونغني ، فالشرابُ يجلو الصوتَ ويجعل الأُذُنَ أشدّ دِقة » .

ثم راحا يغنّيان ويمزَحان وهما يُفرِغـان كأساً إثرَ كأس .

وفجأةً قطع عليهما الغناءَ قَرْعٌ شديدٌ على الباب .

١٣ . الكمين

كان أول ما فعلهُ سدريك ، عندما رأى ابنَهُ يقعُ مُغْمىً عليه ، هو أن أرسل رجالَهُ لإسعافه . فقد كلّفَ « أزوالد » بنقله إلى « أشبي » . ولكن أزوالد ، لما وصل إلى مكان الحادث ، علم أن الجريحَ قد نُقِلَ على نقّالة تخصّ سيّدةً كانت تحضُرُ المباريات . علاوةً على هذا

وجدَ نفسَه وجهاً لوجه أمام خادمٍ آيفنهو الذي لم يكن متخفياً لأن الحزنَ على ما أصابَ سيّدَهُ أنساه كلَّ حذَر . وهكذا رآه سدريك ، فصاح :

— « ضعوا القيود في يدي هذا الشقي ! »

فتقبّلَ غورث هذا العقابَ دون أن يرفَعَ إلى سيّدِهِ نظرةَ عتَب ، ولكنّه تمتَمَ قائلاً :

— « أهذا جزاء من يُحِبُّ المخلوقَ الذي مـن لحمك ودَمِكَ أكثرَ من نفسه ؟ ! » .

وكان جواب سدريك :

— « إلى ظهور الخيل .. هيا بنا ! » .

وسار الرَّكْبُ في طريق العودة .

وبينما كانوا يَحثّون مَطيّتَهُمْ لاجتياز الغابة ، التي هي ملجأ عاديّ للعديد من الخارجين على القانون ، سمعوا صراخاً وتأوّهات . فلما اقتربوا وجدوا محفّةً مُغْلَقَةً جُرِّدَتْ من خيولها ، وبقربها فتاةٌ ترتدي الملابسَ الفاخرة ، وشيخٌ يعتمر غطاء رأسٍ أصفر ، مما يرتديه اليهود ، وكان الاثنان يبكيان وينتحبان .

كانَ الرّجلُ هو اسحق اليوركي وابنتهُ ريبيكا . وكانا قد غادرا أشبي متوجّهيْن إلى دونكاستر ، ومعهما ستةٌ من الرجال المسلّحين . ولكن الرجال تركوهما آخذين معهم خيلَ المحفّةِ التي يرقدُ فيها جريح . وراح

اسحق يستعطفُ السكسونيين ويرجو منهم أن يأخذوهما تحت حمايتهم .

ووافق سدريك على إعطائهما بعضَ الخيول وتكليفِ رجلَيْن بمرافقتهما . غير أن ريبيكا نهضتْ وتوجهت إلى حيث كانت رُوينا فركعت أمامها وقبّلت طرَفَ ثوبها ، وخاطبتْها قائلة :

— « إنني لا أستعطفُكِ من أجلي ولا من أجل هذا الرجلِ المُسنِ ، بل من أجل شخصٍ عزيزٍ على الكثيرين ، وعليكِ أنتِ بالذات ... بآسْمِهِ أستحلفُكِ أن تأخذي هذا الجريحَ تحت حمايتكِ ! »

فأثّر في الأميرةِ السكسونية كلامُ ريبيكا تأثيراً عميقاً ، وأمرَتْ بأن يُعْطَى الأبُ وابنتُهُ فرَسَيْن ، وأن تُرْبَطَ بغلتان بمحفّةِ الجريح .

واغتنم غورث حدوثَ هذه الفوضى فطلبَ أن يُخفّفَ شدُّ وَثاقِهِ ، فتولّى تلك المهمّةَ « ومبا » ، الذي ربطَ غورث بإهمالٍ مُتَعَمَّدٍ أو طبيعي ، فلم يلبثْ غورث أن تخلص من وَثاقِه ، واختفى في الغابة قبل أن يعودَ الرَكْبُ إلى ظهورِ الخيل .

وبينما كانت الجماعةُ سائرةً في ممرٍّ يَصْلُحُ لأن يكونَ هدفاً لِكَمينٍ إذا بعدَدٍ كبيرٍ من الرجال يهاجمونهم من كلِّ ناحيةٍ صائحينَ صيْحاتِ الخارجينَ على القانون :

« يا للتنّين الأبيض ! يا للقدّيس جورج ! يا لإنكلترا القديمة ! »

وسمّرَ سدريك المهاجمَ الأول في شجرةِ سنديان ، وتحولَ إلى الثاني ، ولكنَّ سيفَهُ تحطّمَ على فرعِ شجرةٍ منخفض . عندئذ هاجمَهُ رجلانِ وأسَراه . ولم يَنْجُ من الجَمْعِ سوى « ومبا » الذي أبْدى كثيراً من الشجاعة في هذه المناسبة ، وكثيراً من الذكاء ، بل إنه حاول تخليصَ سيّدِهِ ، ولكنَّ كثرةَ الأعداء أجبرَتْهُ على التخلّي عن مشروعه .

وفيما كان يَسيرُ راح يحدّث نفسَهُ قائلاً :

— « لَكَمْ سمعْتُ الناسَ يُطْرُون لذّةَ الحرية وجمالَها.. ولكنني أودّ اليوم أن أعثُرَ على رجلٍ حكيم يُعلّمني ماذا أصنعُ بحريّتي ! » .

وناداه صوت مكتوم بجانبه :

— « ومبا ! » .

في حين جرى الكلب « فنغس » يستقبلُهُ بضروب التعبير عن الفرح !

وردّ « ومبا » بنفس اللهجة :

— « غورث ؟ »

— « أجل ! .. ولكنْ ما هذه الضجة ؟ »

— « مغامرة عادية ! .. لقد أصبح الجميع في الأسر ! »

— « كيف حدَثَ هذا ؟ .. ومن الذي أسرَهم ؟ »

— « في وُسْعِ رجلَيْن جريئين أن يخلّصاهمْ .. تعالَ نجرّبِ الحظ ! »

وفيما هما ينهضان ظهرَ رجلٌ ثالثٌ يُشْبِهُ المهاجمين بلباسه وسلاحه . ولكنّه كان مكشوفَ الوجه . ولكنّ البوقَ اللمّاع المُتَدلّي من حِمالة سيفِهِ ، والهدوءَ والوثوقَ اللذينِ يسيطرانِ على كلامِهِ وحركاته ويَفْرِضانِ احترامَهُ على كلّ من يقفُ أَمامَهُ جعلتْ « ومبا » يعرفه : إنه لوكسلي ، المالك الانكليزي الذي ربح جائزة الرماية في مباريات أشبي دي لازوش .

قال لوكسلي :

— « مَنْذا الذي يجرُؤُ على أن يأخُذَ أسرى في هذه الغابة ؟ »

أجاب ومبا :

— « في وُسْعِك أن تذهبَ لتراهم ، فقد تعرفُهم .. إنهم يُشبهون جماعتَكَ كما تُشْبِهُ حبّةُ الحِمّصِ الخضراءُ حبّةَ حِمّصٍ خضراءَ أخرى ! »

— « سأعرِفُ هذا في الحال ! .. انتظِراني هنا ، ولا تتحرّكا ، فذلك أسلمُ لكما ولِسادَتِكما ! » .

ثم نزع حِمالتَهُ وريشةَ قُبّعتِهِ وتركَهُما مع « ومبا » ، ثم أخرج قناعاً من جيبِهِ تقنّعَ به ، وتوجّهَ للاستطلاع . ولكنّه لم يَغِبْ سوى دقائقَ عاد بعدَها ليقول :

— « لقد رأيتُهم وتحدّثْتُ إليهم .. إنهم من الكثرة بحيث يكونُ من الجنون أن نهاجمَهُمْ نحن الثلاثة .. ثم إنهم أقاموا حرَساً حولهم . لذلك لا بُدّ من جَمْعِ قوّة أكبر .. وأنا أعرِفُ أين أجدُ هذه القوّة . لن أدَعَ أحداً يقولُ إن سدريك السكسونيّ ، المدافعَ عن حقوق الإنكليز ، لم يجِدْ ذراعاً انكليزية تساعدُهُ في محنتِهِ وتَشُدُّ أزْرَه ! .. هيّا بنا ، ولنسرِعْ ، لأنهم على وَشْكِ التحرّك ! » .

١٤ . التأهب للمعركة

سار « ومبا » و « غورث » ودليلهما ثلاث ساعات حتى وصلوا إلى فُرْجة في الغابة يرْقُدُ فيها ، تحت سنديانة ضخمة ، خمسةٌ أو ستةٌ من المُلاّك الانكليز يقومُ أحدهم بالحراسة. وما إن سمعَ الخفيرُ وَقْعَ الخُطى حتى نبّه رفاقَهُ ، الذين استعدّوا للمعركة في لمح البصر . ولكنّ لوكسلي عرّفَهُمْ بنفسه ، فاستقبلوه بالحفاوة والاحترام . فسألهم :

— « أين الأخ ؟ »

— « في صَوْمَعَتِهِ ! »

— « أنا ذاهبٌ إليه .. إجمعوا رفاقكم .. إجمعوا أكبرَ عدد منكم لأنّ الطريدةَ التي سنلاحقُها قادرةٌ على الصمود ! عُودوا إلى هذا المكان بالذّات عندَ الفجر .. ولْيَذْهَبِ اثنان منكم إلى توركلستون ، قَصْرِ جبهة الثور . هناك جماعةٌ من الجنود ، يرْتَدون نفسَ ملابسنا ، في طريقهم إلى هذا القصرِ ومعهُم عَدَدٌ من الأسرى . راقِبُوهم .. وحتى لو استطاعوا أن يدْخلوا القلعةَ فإنّ الشّرفَ يقضي علينا أن ننتقمَ منهم ، بأيّ وسيلة ، لقاءَ الإهانة التي ألحقوها بنا . إتبَعُوهم ، وليَذْهَبْ أسرَعُكُمْ عَدْواً لاستطلاع أخبارِهم » .

مضى الرجالُ لتنفيذ هذه الأوامر ، بينما توجّه لوكسلي ورفيقاه نحو كنيسةِ كوبمانهارت . وقال « وَمْبا » عندما اقتربوا من المكان :

— « ما أغربَ النشيدَ الذي يُرتّلُ داخلَ هذهِ الصومعة ! » .

كان الراهبُ ورفيقُهُ في تلك اللحظة ، يُغنّيان بأعلى صوتهما ، أغنيةً قديمة ، مما يُغنّى على موائد الشّراب . وقد أوقفهما عن الغناء قَرْعُ لوكسلي الشديدُ ، الذي أتبعَهُ بقوله :

— « إفتحْ ، أيها الراهب المجنون ! .. أنا لوكسلي ! »

قال الراهبُ لرفيقه :

— « لا تخشَ شيئاً .. هذا أحدُ الأصدقاء ! »

وسألَ لوكسلي وهو يَدْخُلُ ووراءَهُ رفيقاه :

— « مَنْ هذا الرفيقُ الجديد ؟ »

— « إنه أخٌ من جماعتنا ! »

— « الآن عليك أن تتركَ سُبْحَتَكَ وتحمِلَ قَوْسَكَ ، فنحن في حاجة إلى جميع رجالنا ! »

وأضافَ بصوتٍ منخفض :

— « أوَليس من الجنون أن تستقبلَ هنا فارساً لا تعرِفُــهُ ؟ أنسيتَ نظامنا ؟ »

— « لا أعرفُهُ ؟ ! كيف لا أعرِفُهُ ؟ ! إنه السير أنتوني أوف سيرا بلستون ! »

وفي الحال خلعَ الراهبُ مُسوحَهُ فبدا بسراويلَ مُشَمّعَة سوداء وقميصٍ مشدود على جسده ، فارتدى سراويلَ خضراءَ وسترةً جنديّ . وبينما كان يغيّرُ مظهرَهُ خاطبَ لوكسلي الفارسَ قائلاً :

— « إنّك لا تستطيع أن تتنكرَ ، أيها السيّد الفارس ، أنك أنت الذي جعلْتَ الانكليزَ يُحرِزونَ النصرَ في أشبي ! »

— « وماذا تستنتج من ذلك ، أيها الانكليزيّ الطيّب ؟ »

— « أنك قد تكون مستعدّاً لنُصْرة الضُّعفاء .. إسمَعْ : إن هناك جماعةً من الأنذال المتنكّرينَ بالملابس

الانكليزية ، قد أسروا نبيلاً انكليزياً ، هو سدريك
السكسوني ، وهم يتوجهون به وبربيبته ، في هذه
اللحظة ، إلى قصر تورسكيلستون .. هل انت مستعد
لمساعدتنا على تخليصه ؟ » .

— « إن ما نذرت له نفسي يدفعني إلى ذلك ...
إكتفوا بهذا الرد ! » .

في هذا الوقت كان الراهب قد استكمل تسلحه ،
وخرج الجميع فأقفل الراهب باب الصومعة . وقال
لوكسلي :

— « إلى الأمام ، أيها الأصدقاء ، يجب ألا نتلكأ ..
علينا أن نجمع كل قواتنا ، وهي لن تكون كافية
لمهاجمة قصر رجينالد جبهة الثور ! »

وصاح الفارس :

— « ماذا ؟ جبهة الثور هو الذي يقبض على
رجال الملك في طريق الملك ؟ ! هل أصبح ظالماً
وقاطع طريق ؟ ! »

أجاب لوكسلي :

— « أما كونه ظالماً ، فقد كان كذلك طول حياته ! »

وقال الراهب :

— « وهو شر من كثير من قطاع الطرق الذين
أعرفهم ! » .

١٥ . مع الاسرى في تور كيلستون

أقبل الليل وما زال الخاطفون يقودون أسراهم
عبر الغابة . وفجأة قال الجندي الراهب لدي براسي
إنه حان الوقت لكي يذهب ويقوم بدور المنقذ حسبما
تم الاتفاق . قال دي براسي :

— « لقد غيرت رأيي ، فلن أتركك ما لم
تصبح أسيرتي في مأمن بقصر جبهة الثور ! »

— « ولم هذا التغيير ؟ »

— « هذا لا يهمك ! »

— « كن مطمئناً ، فأنا لا أفكر مطلقاً بحسنائك
ذات العينين الزرقاوين فلقد رأيت بين أسرانا واحدة
لا تقل عنها جمالاً ! »

— « لعلك تقصد اليهودية الحسناء ؟!.. ومع
ذلك كنت أتصور أنك تهتم بأموال الوالد أكثر مما
تهتم بعيني البنت السوداوين ! »

— « إنني حريص على كليهما ! .. على أي حال
علي أن أعطي نصف المال إلى جبهة الثور ، الذي لا
يمكن أن يعبرنا قصره بالمجان . ولما كنت أريد شيئاً
لي وحدي ، فأنا أختار اليهودية الجميلة . ها أنت تعرف
الآن مشاريعي ، فلنعد إلى خطتنا الأولى ! »

— « كلّ ما قلتَه لي حسَن . ولكنني لا أريد أن أبتعدَ عن حسنائي ! »

في هذا الوقت كان سدريك يتحايلُ على حُرّاسه ، ويستخدمُ معَهم كافّةَ الوسائل ، ليحملَهُمْ على إخباره بحقيقة ما حدَث . ولكن الحرَسَ لزِموا الصمتَ ولم يُجيبوه بشيء .

وأخيراً وصلوا إلى الطريق التي ينهضُ في آخرها قصرُ توركيلستون ، وقد انعكستْ عليه أشعّةُ الشمس الأولى . هنالك عرفَ سدريك هُويّةَ خاطفيه .

وأمامَ باب القصر ، وقف دي براسي ، ونفخ في بوقه ثلاثاً ، فانخفض الجسرُ المتحرّك . وأنزلوا الأسرى ، الذين لم يكن في مُستطاعهم أن يقاوموا . لهذا ساروا وراءَ أدلاّئهم عَبْرَ قاعة لها أعمدةٌ ضخمةٌ قليلةُ الارتفاع . وقد عزِلت ليدي رُوينا عن أصدقائها ، وباحترام ذهبوا بها إلى حُجرة بعيدة . وبمثل هذا التدبير الخاص عوملت ربيكا ، التي أبعدوها عن والدها رغم توسُّلاته . أما الخدم فقد جُرِّدوا من أسلحتهم وفُتِّشوا ثم سُجِنوا .

وصاحَ سدريك في أحد أتباع جبهة الثور قائلاً :

— « قُلْ لجبهة الثور إننا خاضعونَ لجشعه كما نخضعُ لقُطّاع الطُّرُق .. فلْيُحدِّدْ فِديَتَنا ، وسنَدْفَعُها إليه إن كانتْ معقولةً ! »

فانحنى التابعُ دون أن يَرُدَّ بكلمة .

عُومِلَ السكسونيونَ معاملةً خاصةً بالقياس إلى ما أُعِدَّ لليهوديّ اسحق اليوركي ، فقد اقتيدَ إلى قبوٍ صغيرٍ رَطْبٍ تفوحُ منه رائحةُ العفَن ، ولا يتسربُ إليه سوى نورٍ ضعيفٍ من كُوّة صغيرة عليها قُضبانٌ من الحديد . وكان هناك بعضُ السلاسلِ والقيودِ وقِطَعِ الحديدِ الصَّدِئة ، مما يدلّ على أن عدداً من الأسرى تعاقبوا على هذه الزّنزانة الرهيبة ، وأنّ واحداً منهم على الأقلّ قد لقِيَ حَتْفَهُ فيها ، إذ ما زالَ على أرضها بعضُ العظام البشرية . وكان في ركنٍ من الزّنزانة مَوْقدٌ من الحديد مملوءٌ فحماً وعليه قضبانٌ حديدية .

وجلسَ إسحق على حجرٍ هناك ، وظلّ تائهاً نحوَ ثلاثِ ساعات . ثم نبّهَهُ من شرودِهِ وهواجسِه المؤلمة صريرُ الأقفال والبابُ الذي انفتح ، فظهرَ على عتبتِه جبهةُ الثور بنفسِهِ ووراءه عبْدانِ من عبيد الكاهن الجنديّ .

كان جبهةُ الثور يتميّزُ بجسمٍ رياضي وقوّةٍ خارقة ؛ وقد قضى حياته في المعارك ، غيرَ متورّعٍ عن القيام بأيّ عملٍ واستخدامِ أيّ وسيلة من الوسائل للحصول على الشهرة والمال . وكانت آثار الجروح التي تكسو وَجْهَهُ تزيدُ في الرّهبةِ التي يبثها في النفوس وجهُهُ

الصارمُ ونظراتهُ الوحشية .

وكان العبدان يحملان سلّتَيْن وقد شمّرا عن زنودهما كما يفعلُ الجزّارون . وقد ظلاّ واقفيْنِ عند الباب الذي أقفلَهُ جبهةُ الثور . ثم تقدّمَ نحوَ اليهوديّ وهو يرميه بنظرات مهدِّدةٍ دون كلام . أما اليهوديّ فقد كان ينظرُ فاغرَ الفم جاحظَ العينين من شدّة ما عراهُ من هلَع .. لقد تضاءلَ وانكمشَ في ركنِه كأنه يتمنى أن ينمحي تحت وطأة النظرات النارية للبارونِ المخيف ، الذي كان أشبهَ بنسْرٍ ينفشُ ريشَهُ لينقضّ على فريسته .

وأشار إلى أحد العبدَيْن ، فاقتربَ بسلّتِه ، ثم أخرجَ منها ميزاناً ومعاييرَ وضعها أمام جبهة الثّور . قال هذا الأخير لليهوديّ :

— « أترى إلى هذا الميزان ، أيها الكلب اللعين ؟ ! .. عليك أن تزنَ لي فيه ألفَ ليبرة من الفضة ! » . (الليبرة حوالى ٥٠٠ غرام) .

— « من رأى يوماً مثل هذا المبلغ بالفِضّة ، يا سيدي ؟ ! .. إن كلّ يهودِ يورك لا يملكونه ! » .

— « إذا كانت الفِضّةُ نادرةً فسأتساهلُ معك وأقبلُ أن تدفعَ ذهباً ، بمعدّل مارك واحد (عملة ذهبية قديمة تزن ٧٥, ٢٤٤ من الغرامات) لكلٍّ ستّ ليبرات ..



دو برايسي يُراقب تجمُّع خصومه من البرج ٥

بذلك تُنْقِذُ هيكلك هذا من تعذيب لا تستطيع أن تتصوّره ! »

— « ارحمني ، أيها الفارس النبيل ! .. إنني شيخٌ ضعيفٌ محرومٌ من الأصدقاء ! أيّ مجدٍ ينالكَ إنْ سحقْتَ دودةً صغيرةً لا شأنَ لها ؟ »

فلم يَرُدَّ عليه جبهةُ الثور ، بل أشار إلى العبدين اللذَيْن أخرجا من السلّة الأخرى فحماً خشبياً ومِنفاخاً وزيتاً ، وأقبلا على المَوْقد ليُشعلا الفحمَ الحجريّ الذي فيه . وقال جبهة الثور :

— « على هذه القضبان الحديدية، المُحمّاة إلى درجة الاحمرار ، ستنام ، في حينَ يُذكي أحدُ العبدَيْن النارَ ويَدْهَنُ الآخرُ جسدَكَ بالزيت ليُقْلَى دون أن يَشتعل. إنني أترك لك الخيارَ بين أن ترقُدَ على هذا الفراشِ الجهنّميّ وأن تَدْفَعَ الألفَ ليبرة .

— « ليَكُنْ في عوني جميعُ الأنبياء ! .. ليس في وُسْعي أن أختارَ لأنني لا أملكُ الوسائل للاستجابة إلى طلبكَ المُذْهِل ! » .

— « جرّداهُ من ملابسهِ ! »

وأقبل العبدانِ يُنفّذانِ أمرَ النورمانديّ الـذي لا يَرْحم . فلما رأى اسحق النيرانَ المتوقّدةَ خانتْهُ أعصابُهُ ورأى ألاّ أملَ لهُ في عَطْفِ جلاّدِهِ قال له :

— « سأدفَعُ الألف ليبرة ! ». وبعد لحظةِ تفكيرٍ أضاف :

— « أعني أنني سأدفعها بمعاونة إخواني .. سأذهبُ للاستعطاء على باب الكنيس ! .. متى وأين عليّ أن أسلّمها ؟ » .

— « هنا ، في هذا المكان بالذات .. ستُوزَنُ وتُحْصى على أرض هذا القبو ! .. أتحسبُ أنني سأدعُكَ تذهبُ قبل أن تدفعَ فديتَك ؟ »

— « وكيف أضمنُ حريّتي بعد الدفع ؟ »

— « الضمانةُ هي كلمة نبيلٍ نورمانديّ ! »

— « عفوك ، أيها السيّدُ النبيل .. ولكنْ كيفَ أثِقُ برجلٍ لا يثقُ بي ؟ »

— « لأنك لا تستطيعُ أن تفعلَ غيرَ ذلك ! »

فزفرَ اليهوديّ زفرةً عميقة وقال :

— « آملُ على الأقلّ ، أن تشتريَ هذه الفديةُ الضخمةُ حُرّيّةَ رفاقي .. إنهم يحتقرونني ، ولكنّهم عطفوا عليّ ، وهذا ما جعلَهُمْ يقعونَ في الكمين الذي نصبتَهُ لهم ! »

— « لا تهتمّ براعييْ الخنازيرِ السكسونيّين ، فحريّتهما خاضعةٌ لشروطٍ أخرى ! »

— « إذن حرّرْ معي صديقيَ الجريح ! »

— « قلتُ لك ألا تفكّرَ إلا في ما يخصّك .. متى أحصلُ على المال ؟ »

— « دعِ ابنتي ربيكا تذهبُ إلى يورك ، مزوّدةً بإذنِ مرورٍ منك ، ولدى عودتها يكونُ المالُ عندك ! »

وتساءلَ جبهةُ الثورِ دهشاً :

— « ابنتُك ؟ ! .. يا للسماء ! .. وددتُ لو عرفتُ ذلك قبل الآن ! كنتُ أعتقدُ أن تلك الفتاةَ ذاتَ العينين السوداويْن هيَ إحدى جواريك ، لذلكَ أعطيتُها لبريان دي بواجيلبير لتكونَ خادمةً له ! »

وصرخَ اسحق صرخةً هزّتْ سقفَ السجنِ وأذهلت العبديْن ، فتركا ذلك الشيخَ المسكينَ الذي سقطَ على رجليّ جبهة الثور وهو يصيح :

— « خُذْ كلّ ما طلبتَهُ ، أيها السيّدُ الفارس ، وفوقَهُ عشرةُ أضعافه .. خُذْ جميعَ أموالي .. اجعلْ مني متسوّلاً .. اقتلْني طعناً بخنجرك .. إشوِ جسدي على نارٍ بطيئة .. ولكنْ أنقذ ابنتي ! إنْ كانت قد ولدَتْكَ امرأة ، فارحم طفلةً لا تستطيعُ الدفاعَ عن نفسها ! »

— « كان يجبُ أن أعرفَ ذلك قبلَ الآن .. ولكنّ ما حدثَ قد حدث ، وقد أعطيتُ كلمةَ شرف لرفيق لي في السلاح ، وليس لعشرةِ يهودٍ وعشرِ يهودياتٍ أن يغيّروا شيئاً في هذا الأمر ! »

— « أيها اللصّ .. أيها القاتل .. لن أعطيكَ شيئاً ..

لن تنالَ مني فلْساً واحداً قبل أن تعيدَ إليّ ابنتي دون أن تُصابَ بأذى ! »

— « هل فقدْتَ عقلك ، أيها اليهوديّ ؟ أم أن في لحمك ودمِك سحراً يحميهما من الحديد اللاّسع والزيت الفائر ؟ »

قال اليهوديّ وقد أفقده يأسُه الصوابَ :

— « لم يَعُدْ يَهُمّني شيء !.. إفعلْ بي ما تريد ، فابنتي هي لحمي ودمي .. إنها أعزّ عليّ من هذه الأعضاء التي تريدُ أن تُسلّطَ عليها العذاب .. لن أعطيَك فِضّة ، إلا إذا استطعْتَ أن أصُبّها سائلةً في حلْقك ! »

فصاح جبهةُ الثور بالعبدَيْن :

— « جرّداهُ من ملابسِه وألقياهُ مُقيّداً فوقَ هذه القُضبان ! »

وحاول اليهوديّ أن يقاومَ ، ولكنْ أنّى لهُ ذلك بين يدَيِ العبدَيْن القويّيْن ؟ وفيما كانا يعملان على نزْعِ ملابسه ، تردّدَ صوتُ نفيرٍ ثلاثَ مرّات ، وارتفعَتْ أصواتٌ من كلّ ناحيةٍ تنادي جبهة الثور . فأمرَ هذا العبدَيْن بأن يتبعاه ، وغادر الجميعُ الزنزانةَ تاركين اليهوديّ وقد أذهلتْهُ المفاجأةُ وأسعدَتْهُ في وقتٍ معاً .

١٦ . فتاتان وجلادان

ما إنِ انتهى الاجتماعُ الحربيّ الذي عقدَهُ الحلفاءُ الثلاثة ، جبهةُ الثور ودي براسي وبواجيلبير ، لتحديد دوْرِ كلٍّ منهم بالنسبة إلى الأسرى ، حتى عمَدَ دي براسي إلى نزْعِ ملابسِ الخارجينَ على القانون التي كان يرْتديها ، وارتدى ملابسَ أنيقةً ، وذهبَ إلى حيثُ وقفَتْ ليدي رُوينا ، فحيّاها باحترامٍ بالغٍ رافعاً قُبّعتَهُ المصنوعةَ من الفرْو . ولما كانتْ واقفةً أمامَهُ فقد قدّمَ لها ذراعَهُ ليقودَها إلى أحدِ المقاعد ، فرفضَتْ قبولَ الذّراعِ الممدودة ، وقالت :

— « إن كنتَ سجّاني ، كما تشيرُ جميعُ الدلائل ، فيجبُ أن أظلّ واقفةً إلى أن أعرِفَ مصيري ! »

— « أنا .. سجّان ؟! بل قولي ، يا رُوينا الجميلة ، إنني الأسيرُ الذي ينتظرُ أن تحدّدي له مصيره ! »

قالت وهي تنتصبُ بعزّةٍ إذ جرُحتْ كرامتُها :

« إنني لا أعرِفُكَ .. ورفعُ الكلفة هذا لا يمكنُ أن يغطّيَ العملَ اللصوصيّ الذي قمتَ به ! »

— « آه ، يا رُوينا الجميلة ! إنك تجهلينَ الحبَّ ، لهذا لا تستطيعينَ أن تغفري القسْوةَ التي دفعَتْني إليها سِحْرُ جمالك ! »

— « أرجو منكَ ، أيها السيدُ الفارس ، أن تضعَ حداً لهذا الكلامِ الذي يستعملهُ الشعراءُ المُغنّون والذي لا يليق بفارسٍ محترم ! ومع ذلك فإنّ الكلامَ المعسولَ الذي يُراد به تغطيةُ بشاعة العمل أشبه بحزام الفرسان يوضع في وسط إنسانٍ تافه . لعلّ ثوبَ اللصوصِ وكلامَهُم أكثر ملاءمةً لنوع السلوك الذي سلكتَهُ ! »

— « كلامُكِ معقول .. لهذا أقولُ لكِ ، بصراحة تتناسب مع جرأة العمل الذي قمتِ به ، إنكِ لن تخرجي من هذا القصر إلا إذا أصبحتِ زوجةً لموريس دي براسي ! إنني لم أتعوّدِ الإخفاقَ في أعمالي ، وليس على نورمانديّ نبيلٍ أن يبرّرَ مسلكَهُ أمامَ سكسونيّةٍ يريد أن يشرّفها بالزواج منها . إنكِ معتزّةٌ بنفسكِ ، يا ليدي رُوِينا ، وهذا ما يجعلكِ أكثرَ جدارةً بأن تكوني زوجةً لي . هل لديكِ وسيلةٌ أخرى تستطيعينَ بها أن تبتعدي عن الحظيرةِ التي يعيشُ فيها السكسونيّونَ مع خنازيرهم ؟ »

— « أيها السيّد الفارس ! هذه الحظيرةُ هي مَسْكني منذُ الطفولة .. واذا كان لي أن أغادرَها يوماً ، فسيكونُ ذلكَ مع إنسانٍ لا يحتقرُ مَسْكني ولا يحتقرُ العاداتِ التي درجْتُ عليها ! »

— « إنني أفهمُ مؤدّى كلامِكِ ! ولكنِ اعلمي أن ريتشرد قلبَ الأسد لن يعودَ إلى التربّع على عرشِهِ ،

وويلفرد آيفنهو ، صفيّتُهُ ، لن يُتاحَ له الاقترانُ بكِ .. لعلّ غيري كان سيشعرُ الغَيْرةَ ، ولكنّ إرادتي ستنتصر على ذلك الحبّ السخيف الذي لا أملَ فيه والذي تحملينه لآيفنهو .. وأريدُ أن تعرفي أن هذا المنافسَ في قبضتي ، وأنّ كلمةً واحدةً مني من شأنها أن تكشفَ عن وجوده هنا لجبهة الثور الذي ستكونُ غَيْرتُهُ أشدَّ خطراً على حياة آيفنهو من غَيْرتي ! »

قالتْ رُوِينا متسائلةً باحتقار :

— « ويلفرد هنا ؟ ! .. نعم إن جبهة الثور منافسٌ له ! »

فتفرّسَ فيها لحظةً ثم قال :

— « أحقاً أنتِ لا تعلمين أن ويلفرد آيفنهو كان في محفّةِ اليهوديّ ؟ .. أما بالنسبة إلى جبهة الثور فإنهُ مستعدّ للقضاء على أيّ شخص يحاولُ أن ينتزعَ منه إقطاعة آيفنهو .. ولن يتأخّرَ ، في هذا السبيل ، عن استخدامِ خنجرِهِ .. واذا أرادَ ألاّ يلجأ إلى طريقة العُنف ، ففي استطاعة الطبيب الذي يعالجُ آيفنهو أن يخطىء في الدّواء ، كما أنّ في استطاعة من يَسْهرُ على الجريح أن يسحبَ الوِسادةَ من تحتِ رأسه ، فيختفي آيفنهو دون إراقةِ دماء ! ثم إن سدريك نفسَهُ .... »

— « سدريك نفسه ! مُربّي النبيل الجواد ! إنني أستحقّ ما يُصيبني من بلاء لأنني أنسى مصيرَهُ ولا

أفكّرُ إلا في مصيرِ ابنهِ ! »

— « إنّ مصيرَ سدريك متوقّفٌ على قرارِكِ ! »

ووصل الحديثُ إلى هذه النقطةِ الدقيقةِ عندما تصاعدَ صوتُ البوق .

أما ربيبكا فقد أُرْسِلَتْ إلى حُجرةٍ صغيرةٍ في البرج ، الذي هو أبعدُ نقطةٍ في القصر . في هذه الحُجْرة كانت تجلسُ امرأةٌ عجوزٌ أشبهُ بساحرة ، وكانت منهمكةً في الغزْل وهي تدندنُ أغنيةً سكسونيةً قديمة . وعندما دَخلَتِ القادمةُ الجديدةُ لم تتَنَبّهْ لدخولِها بَلْ ظَلّتْ عاكفةً على مِغْزَلِها . وبعد دقائقَ غادرتِ الحجرةَ تاركةً ربيبكا لأفكارها وتأملاتِها .

كان وضعُ ربيبكا أخطرَ بكثيرٍ من وضعِ رُوينا التي لا يمكن إلا أن يقدّرَ الجلادونَ مكانتَها كنبيلةٍ سكسونية . لهذا اصفرّتْ ربيبكا وارتجفتْ عندما رأت رجلاً ، يرتدي ملابسَ الخارجينَ على القانون ويغطي أسفلَ وجهه بطرَفِ مِعْطَفِهِ ، يدْخُلُ عليها . ولما كانت تعتقدُ أنه من اللصوص فقد خلعتْ عِقْدَها وسِوارَيْنِ وقدّمتها إليه لشراءِ حريتِها وحريّةِ والدِها . قال بواجيلبير :

— « حسناً ، أيتُها الزهرةُ الجميلة ، إن إسحقَ

العجوزَ هو الآن بين يدي خيمائي* يعرِفُ كيف يحوّل كلّ شيء إلى ذهب وفضة ، حتى الحديد الصدىء . إن الجمالَ والحبّ هما فِدْيتُكِ ، أيتُها الزنبقةُ الرائعة ، ولن أقبلَ بعملة أخرى ! »

— « أنتَ لستَ خارجاً على القانون ، لأن أيّ خارج على القانون ما كان له أن يرفضَ هذا الذي قدّمْتُهُ إليك .. ثم أنتَ تتكلمُ بطريقة مختلفة عن لهجة أيّ خارج على القانون . أنت نورمانديّ .. ولعلكَ من النبلاء ، فكن نبيلاً في أعمالك واخلَعْ عنها هذا القناعَ من القسوة ! »

— « نظرتُكِ في محلّها ، أيتُها الوردة . فأنا لستُ خارجاً على القانون ! .. وأنا مستعدّ أن أزيّنَ جيدَكِ ومِعْصَمَيْكِ باللؤلؤ والماس ، بدلَ تجريدها من حُليّها . »

— « إن كنتَ لا تريدُ ثروتي ، فماذا تبتغي مني ؟ .. إن زواجَنا لا تُقرّه لا الكنيسةُ ولا الكنيس ! »

قال بواجيلبير وهو يقهقه :

— « أنا أتزوّج يهودية ؟ ! .. هذا غيرُ وارد على الاطلاق ، حتى لو كنتِ مَلِكةَ سبأ ! .. بل لو قدّم إليّ مَلكُ فرنسا ابنتَهُ مع البلاد كبائنة (دوطة) لرفَضْتُ الاقترانَ بها .. إنني جنديّ راهبٌ ! .. »

---

* الخيمائي هو المشتغل بالكيمياء القديمة التي كانت تهدف الى تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب .

— « إذن أنت لا تريدُ سوى الرذيلة والفَحْشاء ! »

هنـــا قَدَحَتْ عينـــا الفارسِ الراهبِ بالشَّرَرِ وقال لها :

— « إسمعي ، يا ريبيكا ! لقد استخدمتُ معكِ حتى الآن لُغَةَ اللّطف . ولكنني سأتحدّثُ معكِ كسيّد .. فأنت أسيرتي . ولا شيء ، ولا أيّ إنسان ، يمنعُني من أن أمارسَ حقوقي ! »

فما كان من ريبيكا إلا أن فتحت النافذة وصعدَتْ عليها لتقذفَ بنفسها من أعلى البرج . ولم يكن بواجيلبير يتوقّع منها ذلك لأنها ظلّتْ ساكنةً حتى تلك اللحظة . قالتْ وقد رأتْهُ يهمّ بالتقدّم نحوها :

— « إبْقَ حيث أنت ، أيها الفارسُ الكاهـنُ الصّلف . إن تقدّمْتَ خطوةً واحدةً قذفْتُ بنفسي من هنا ! » .

قال بواجيلبر ، وقد تأثّرَ بصلابتها وقوّةِ شخصيتها ، مما جعلَهُ يزدادُ تعلّقاً بها :

— « لِنتَهادَنْ ، يا ريبيكا ! »

— « لِيَكُنْ ، ولكنْ من بعيد ... »

— « لا بأس ! ... إنني سأعرّفُكِ بنواياي فيما بعد ، لأن هذا النفيرَ يدْعوني بإلحاح .. فكّري في كلامي .. سنرى بعضَنا عمّا قريب ! »

ثم غادرَ الحجرة ، تاركاً ريبيكا فريسةً للخوف والتوجّس .

١٧ . الخطاب العجيب

لم يكدِ الفارسُ الكاهنُ يلتقي دي براسي في قاعة القصر الكبرى ، حتى لحق بهما جبهةُ الثور ، وهو يحملُ بيده خطاباً جاءَهُ به رسولٌ خاص . وكان دي براسي لا يختلفُ عن صاحبهِ الشرس جبهةِ الثور من حيث الجهل ، لهذا تولى الجنديّ الكاهنُ قراءةَ تلك الرسالة الغامضة المكتوبةِ باللغة السّكسونية . ولم يكَدْ بواجيلبر يمضي في تصفّحها حتى صاح دَهِشاً :

— « وحقّ سيدة بَيْتَ لَحْم إنّهُ لأغْربُ تحدٍّ رأيتهُ في حياتي .. إسمعا ! » وراح يقرأ :

« نحن ، ومبا بن ويتلس ، مهرّج الرّجُل النبيل سدريك دي روذروود الملقّب بالسّكسوني ، وغورثَ بن بيوولف ، راعي الخنازير ... »

قال أحدهما :

— « أنت مجنون ! »

فأجاب بواجيلبير :

— « أقسمُ بالقديس لوك ، إنني لا أقرأ إلا ما هوَ مكتوبٌ أمامي ! »

وعادَ الجنديّ الكاهنُ يتابعُ قراءةَ الرسالةِ العجيبة التي يطالبُ فيها عبدا سدريك وصديقاهما ، الفارسُ الملقبُ بالكَسْلان الأسْود ، والمالكُ الانكليزي الشجاع لوكسلي ، بإطلاق سَراح سدريك دي روذروود وليدي رُوينا مع أتباعهما وحاشيتهما ، وكذلك اليهودي اسحق اليوركي وابنته وخدمهما ، الذين أسَرَهُمْ بخسّةٍ ودونَ وجه حقّ ريجنالد جبهة الثور وحلفاؤه ، وإعادة ما يَخُصّهُم من خيل ومتاع ، وإلا أعلنوا (العبدان وصديقاهما) حرباً لا هَوادَةَ فيها على المدعوّ ريجنالد وحلفائه . وكانت هذه الرسالةُ ، التي كتبها ، تحت سنديانة « هارت — هيل — ووك » ، راهب كوكمنهارت ، تحملُ تواقيعَ الحلفاء الأربعةِ على النحوِ التّالي : ديك مرسوم بصورة سيّئة يعبر عن اسم ومبا ، وصليب مكان اسم غورث ، وسهم جيد الرسم يمثل سلاح لوكسلي ثم اسم « الكسلان الأسود » بأحرف رسمتها يدٌ بارعة .

وبعد أنِ انتهى بواجيلبر من قراءة الرسالةِ ظلّ الثلاثةُ صامتين والدّهَشُ على وجوههم . ثم قطعَ هذا الصمتَ انفجارُ الفارسِ الجنديّ ودي براسي بالضّحِك .

أما جبهة الثور فقد ظلّ متجهّمَ الوجه .. قال :

— « هذه هي نتيجة مسايرتي لكما .. ففي مساعدتي لكما على تحقيقِ أغراضِكما أثرْتُ على نفسي هذا الرّفّ من الزنابير الخبيثة ! »

قال الراهب الجندي :

— « وما قيمتهم ؟ .. لنخرُجْ إليهم ، وسُرْعانَ ما نفرّقهم ! »

— « كيف نخرجُ وليس لدينا من القُوّات ما نستطيعُ به أن ندافعَ عن القصر ؟ ! إن رجالي ورجالَ موريس موجودونَ في يورك ، وكذلك مالفوازان وحلفاؤنا . »

وعقّبَ دي براسي على ذلكَ قائلاً :

— « لنَستَدْعِ رجالَنا من يورك ! »

— « ولكنْ .. من يستطيعُ أن يحملَ الرسالة ؟ .. لا بُدّ أن هؤلاء اللئامَ قد ربطوا جميعَ الدروب ! »

وبعدَ أن فكّرَ جبهةُ الثور لحظةً قال :

« لديّ فكرة : يجب أن نَرُدّ على هذا الخطاب المتحدّي الصّلف ! »

وفي الحال عَمَدُوا إلى كتابةِ رسالةٍ باللغة الفرنسية ، خطّها بواجيلبر وأملاها جبهةُ الثور وجاء فيها أن السير ريجنالد جبهةَ الثور وحلفاءه لا يَقبَلونَ بتحدّ صادر عن عبيد ومنفيّين وخارجين على القانون ، وهُمْ يرَوْنَ أن الرجل الذي يُطلِقُ على نفسه اسمَ « الكسلان الأسود » يُلَطّخُ شرفَهُ ، إن كانَ حقاً من النبلاء ، بتحالُفِهِ مع مثل هؤلاءِ الأشخاص . وهم ينْوُونَ أن يُعْدِموا الأسرى هذا اليومَ بالذات ، ولهذا يطلبونَ

كاهناً ليكونَ إلى جانب هؤلاءِ في ساعةِ موتهم .

وحمل الرسالة نفسُ الرجل الذي جاء برسالة التحدّي ، وأعطاها إلى قيادةِ القُوّاتِ المتحالفة ، التي جعلت مَقَرّها تحت سنديانةٍ باسقةٍ تقومُ في مواجهة القصر . وكان تحت السّنديانة « ومبا » و « غورث » . وحلفاؤهما : الفارسُ الأسود ولوكسلي والناسكُ المرِح . وغيرَ بعيد منهم تجمّع نحوُ مئتي رجلٍ من الانكليز ، كان يزْدادُ عددُهم ساعةً بعد أخرى . وعلى مسافة من هذا الجيش كان يحتشدُ جيشٌ آخرُ أقلّ تسلّحاً وتنظيماً ولكنْ أكثرُ عدداً ، وكان مؤلّفاً من عبيد سدريك وفلاّحي القُرى المجاورةِ الذين خفّوا لتخليصِ السّكسونيّ الطيّب ، وهم يحملونَ المناجلَ ومدقّاتِ الحبوب وأسنّة المحاريث .

وأُعطيَتِ الرسالةُ إلى الناسك فلم يَفْهَمْ منها كلمةً واحدة ، ثم تداوَلَتْها الأيدي ، حتى وصلَتْ إلى يدَيْ الفارسِ الأسود ، الذي قرأها ثم تلا عليهم ترجمتَها بالانكليزية.

وصاح غورث :

— « وحقّ القدّيس توماس ، قدّيسِ كنتربري ، لنَسْتَوْلِيَنّ على القصر ، ولو هدَمْناه حجَراً حجراً ! »

وقال الفارسُ الأسود :

— « يجبُ أن يدخلَ أحدُنا إلى القصر . وما داموا يطلبونَ كاهناً ففي وُسْعِ هذا الناسك القدّيس أن يمارسَ

اختصاصَهُ في هذه المناسبة ، وفي الوقتِ نفسِهِ ، يحملُ إلينا المعلوماتِ اللازمة ! »

قال الراهب الطيب :

— « ليحملْكَ الطاعون ! .. إنني ، وقد ارتديْتُ بِزّتي الحربيةَ الخضراء ، لأفضّل أن أقتلَ عشرينَ أيّلاً من أن أعرفَ مسيحياً واحداً ! » .

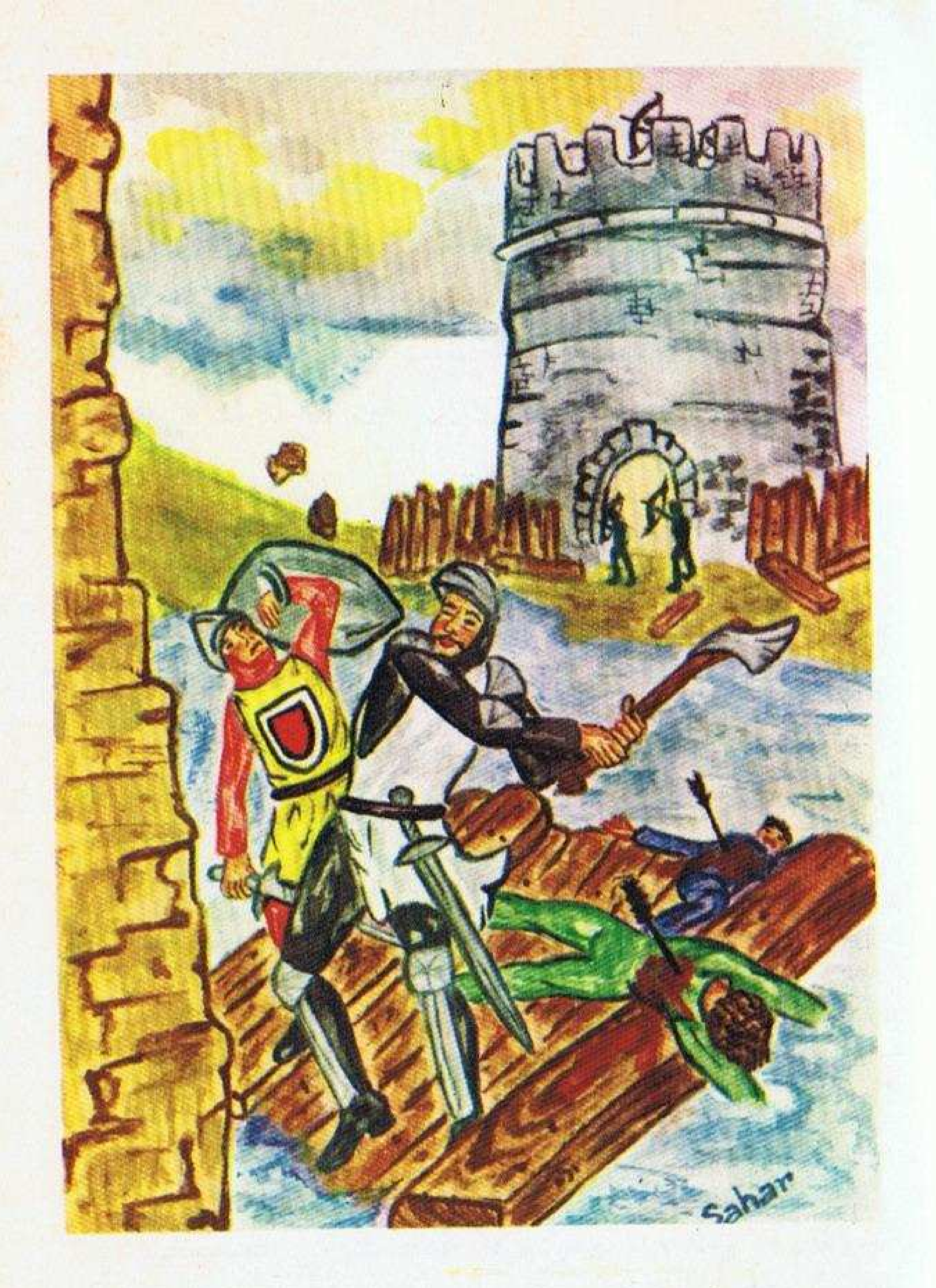
— « أعتقد أن أحداً منا لا يَصْلُحُ لأن يقومَ بمهمّةِ الكاهن غيرك ! »

وصمتَ الجميعُ وأخذوا ينظرونَ إلى بعضهم البعض . وأخيراً قال « ومبا » :

— « المجنون (يطلق على المهرج اسم المجنون أيضاً) عليه أن يكون مجنوناً على الدوام ، كما أن عليه أن يُعرّضَ سلامتَهُ للخطر عندما يتقاعسُ العُقلاء .. أرجو أن أتمكّنَ ، بفضل مُسوح وقَلَنْسُوَة الناسك المحترم ، وبفضل ما فيهما من سِرّ مُقدّس ، أن أتمكّنَ من حمل العزاء الرّوحيّ إلى سيّدنا سدريك ورفاقهِ في المصيبة ! »

قال الفارسُ الأسود :

« إذن ارتدِ ، أيها الفتى الهُمام ، هذا المُسوحَ وامضِ بسرعة ، لأن الظرفَ يقتضي العجلة .. أطلبْ من سيّدكَ أن يعرّفَنا بالوضع داخلَ القصر .. في اعتقادي أن الحاميةَ فيه قليلة ، وأنّ هجوماً مفاجئاً من شأنه أن



الفارس الاسود و « سيدريك » خلال المعركة ٦

يُوقِعَهُ في أيدينا .. وفي انتظار عَوْدَتِكَ سنحاصرُ القَصْرَ حصاراً دقيقاً بحيثُ لا تَخْرُجُ مِنْهُ ذُبابةٌ إلا وتقع في حبائلنا .. خبِّرْ هؤلاء الأجلافَ بأنهم سيدفعونَ غالياً ثمن أيّ أذىً يُلحقونه بالأسرى ! »

وبعد أن لبس « ومبا » المُسوحَ قال :

— « السلام لجميعكم ! »

ومضى عنهم بخطىً رزينة ، كما يسيرُ رَجُلُ الدّين ، ليقومَ بالمُهِمّة التي أوكلَتْ إليه .

١٨ . تحت ثوب الراهب

أقام الحارسُ بعضَ العقبات قبل أن يَسمَحَ لصاحبنا « ومبا » بالدخول ، وهو في هذه الحالةِ التّنكّريّة التي تُخْفي شخصيّتَهُ تماماً .

ولما أصبحَ أمامَ البارونَ الرهيب ، جبهة الثور الذي يرتعد أمامه الناس ، كادت تخونُهُ شجاعتُهُ ، ولكنّ جبهة الثور لم يلاحظْ شيئاً . وسأله هذا :

— « هل هؤلاء اللصوص ، الذين قبضوا عليك ، كثيرو العدد ؟ »

— « يبدو أنهم يناهزون الخمسمائة ، ما بين مالك وفلاح .. كان الخوف يجمّد أوصالي ! »

ودخلَ في هذه اللحظة الراهبُ الجنديّ ، الذي صاح دَهِشاً :

— « كيف يمكن أن يصلَ عدد هذه الزنابير إلى هذا الرقم ؟ ! .. ثم أضاف قائلاً :

— « إن كنتَ لا تعرِفُ هذا الكاهنَ فعلينا أن نحمّله رسالةً خطية ، لا شفويةً إلى أصحاب دي براسي . »

وقاد أحد الخدم « ومبا » إلى حجرة سدريك . فلما دخلَ عليه قال ، مغيّراً صوتَهُ :

— « السلام عليك ! »

فردّ سدريك :

— « وعليك السلام ! .. ماذا جئت تفعل هنا ، يا أبتِ ؟ » .

— « جئت لأعدّك للموت ، يا بني ! »

— « هذا غير ممكن ! فمهما بلغَتْ بهمُ الجرأةُ لا يُقْدِمون على مثل ذلك ! »

— « مع الأسف ، لا يمكنُ الاعتمادُ على انسانيتهم . »

— « إذن ، ابدأ عملكَ أيها الأبُ المحترم ! »

فردّ « ومبا » بصوته الطبيعي :

— « لحظةً ، يا عمّنا ! »

— « إنني أعرف هذا الصوت ! »

قال « ومبا » ، وهو يرفعُ غطاءَ الرأسِ الفضْفاضَ

الذي يحجبُ وجْهَهُ :

— « إنه صوت مهرّجك المخلص ! .. إسمع .. خذ هذا الثوبَ الديني واخرُجْ من القصر .. في إمكانك أن تفعلَ هذا بسهولة .. واترك ْ لي ثوبَكَ وحزامَكَ لأقومَ بدورك ! »

— « ولكنهم سيشنقونكَ ، أيها المهرّج المسكين ! »

قال سدريك هذا وقد استولى عليه التأثرُ أكثرَ من دَهَشِ المفاجأة . أجاب « ومبا » .

— « سيكون هذا من فَضْلِ اللهِ عليّ ، لأنني أكون قد فديتُكَ بنفسي ! »

— « ولكن ، ألا نستطيعُ أن نأمُلَ بمساعدةٍ من الخارج ؟ » .

— « نأمل ! .. إعلَمْ أن هذا الثوبَ الذي عليّ انما هو ثوبُ قائد ! .. إن خمسمئة رجلٍ ، كنت أحدَ قادتِهم ، يقفون على بُعْدِ خطوتين من هنا ، وهم على أهبة الاستعداد للقتال ! .. أستودعك الله يا سيدي .. كن رحيماً بغورث المسكين ، ومُرْ بتعليق قُبَّعَتي في البَهْوِ الكبير بروذروود . تخليداً لذكرى مُهرّجك الأمين ! »

هذه اللهجةُ ، التي هي مزيجٌ من الجِدّ والهزْل ، ملأت عينيْ سدريك بالدّموع .. قال :

— « إن ذكراك ستظلّ باقيةً ما بقيَتِ المحبّةُ والأمانةُ مُمَجّدَتَيْنِ على أرض البشر ! »

وبعدَ أن ارتدى الثوبَ استدركَ قائلاً :

— « ولكنني لا أجيد سوى اللغةِ السّكسونية ، فكيف سأقومُ بدور الكاهن ؟ »

— « لا شيء أسهلُ من هذا : فعندك كلمةٌ واحدةٌ تجيبُ على كل خطاب : پاكس ڤو بيسكوم (السلام عليكم) .. قُلْها بجرأة ، فإنّ لها فعلَ السّحر ! »

— « پاكس ڤو بيسكوم .. لن أنساها ! وداعاً ، أيها الولدُ العزيزُ صاحبُ القلب الكبير .. سأنقذُكَ أو أعودَ لأموتَ إلى جانبك ! »

— الوداع ، يا عمي .. ولا تنسَ : پاكس ڤو بيسكوم ! »

* * *

١٩ . المفاجأة

لم يكَدْ سدريك يخرجُ من الحجرة ويسلكُ دهليزاً مُعْتماً حتى سمعَ صوتَ جبهة الثور يتردّد فيه ، ثم إذا به يقِفُ في طريقه ويقول :

— « هل أعددْتَ التائبين كما ينبغي ، يا أبت ؟ »

فأجاب سدريك بلغة فرنسية لفَظَها على أفضلِ وجهٍ يستطيعه :

— « لقد كانوا متوقّعين كلّ شيء منذ أن عرفوا في أيّ أيدٍ أصبح مصيرُهم ! »

— « هيه ! هيه ! إنني أسمعُ لُكْنةً سكسونية ! »

— « ذلك أنني نشأتُ في دير القِدّيس فيتولد ببيرتون ... »

— « كنت أفضل نورماندياً : »

قالها بهمس ، ثم رفع صوته قائلاً :

— « أتُقَدّم إليّ هذه الخدمة ، ولن تندم ؟ »

— « أنا طوع أمرك ! »

— « إتبعْني .. سأخرجُك من الباب السرّي ! »

وبينما كانا في طريقهما إلى باب السرّ كان جبهةُ الثور يزوّد الكاهنَ المزيّف بتعليماته :

— « أترى إلى هؤلاء الخنازير السكسونيين الذين يجرُؤون على محاصرة قصري ؟ .. قُلْ لهم ما تريد كيما تؤخّرَ هجومَهُمْ أربعاً وعشرينَ ساعةً فقط ، واحمِلْ هذا الخطابَ الذي كتَبَهُ الكاهنُ الجندي بريان دي بواجيلبير ، إلى فيليب دي مالفوازان لكي يُرْسِلَهُ إلى يورك على جَناحِ السّرعة .. وخُذْ هذه ! »

ثم دسّ في يده قطعةَ نقد ذهبية . فأخذ سدريك القطعة ، وهو يتميّزُ غيْظاً . وما إن ابتعدَ عن القصر حتى قذفَ بها بعيداً وهو يُتمتم :

— « أيها النورمانديّ الغادر ! سُحقاً لك ولذَهبِك ! »

ولما عاد جبهةُ الثور إلى مجلسِه ، دعا إليه الأسيرَ ، وقال :

— « هيه ، كيف تجدُ مُقامَكَ في تور كيلستون ؟ ! .. قَسَماً بالله وبالقديس دنيس لئِنْ لم تَدْفَعْ لي فديةً طائلةً لأعلّقنّك من قدَمَيْكَ في حَديدِ هذه النّافذة إلى أن تأتيَ عليكَ العُقبانُ ولا تترُكَ منك حتى العظم ! قل .. ماذا تُقدّمُ فديةً لحياتك ، يا سيد روذروود ؟ »

قال ومبا :

— « ولا قشرة برتقالة ! ... إن علّقْتني من رِجليّ فقد يؤدّي ذلك إلى تركيز مُخّي في المكان الطبيعيّ ، إذ ، أني منذُ الحداثة ، أسمَعُ الناسَ يقولون لي إن دماغي مركّبٌ بالمقلوب ! »

وصاح جبهة الثور :

— « يا لَلقديسة جنفييف ! مَنْ هذا الذي أتَوْني به ؟ ! »

وبحركة عصبية عنيفة نزَعَ غطاء رأس سدريك الذي يغطّي كتفَيْهِ وصَدْرَهُ ، فظهَرَ عِقْدُ العبودية في عنق « ومبا » .

وقال دي براسي الذي دخل في تلك اللحظة :

— « هذا مُهرّج سدريك ! »

وهدَرَ جبهة الثور :

— « وأين الخنزير الآخر ؟ »

— « خرجَ متخفّياً بملابس الكاهن ! »

— « يا لَلْجحيم ! إذن فأنا الذي قُدْتُ بيدي خنزير روذروود إلى الباب السرّي ! » ثم التفت إلى « ومبا » وقال :

— « وأنت أيها المسخ ! .. سأكلّلُ رأسَك كالكهّان ! : اسلخوا جلدَ رأسِه ثم اقذفوا به من فوق الأسوار ! إمزَحِ الآن ! »

قال ومبا :

— « إنك تغمرُني بعطفك : فلقد دخلْتُ هذا القصرَ كاهناً بسيطاً وهأنذا أخرج منه كردينالاً بفضل قلنسُوَتك الحمراء ! »

قال دي براسي :

— « إنه يحتفظُ بروحِه الفُكاهيةِ رَغْمَ كلّ شيء ! .. أعْفُ عنه يا جبهةَ الثور ، فلعله يُسلّي رجالي ! »

في هذه اللحظةِ جاء أحدُ الخدَم ليُعلنَ أنّ هناك كاهناً يريدُ أن يدخلَ إلى القصر . فصاح به جبهة الثور :

— « أهوَ كاهنٌ حقيقيّ أم مُزيّف ؟ .. حذارِ ! .. إن أخطأتم هذه المرةَ فلسوف أسلَخُ جلودَكم ! »

— « إن مساعدَكَ جوسلان قد عرَفه جيداً : إنه الأخ امبرواز ، من دير جور فولكس ! »

وفيما كان النورمانديّان خارجَيْنِ ومعهما « ومبا » التقَوْا بالكاهن امبرواز . قال ومبا :

— « هذا ديوس فوبيسكوم (الرب معكم) حقيقيّ ،

أما الآخران فهما تقليدُه ! »

لقد أتى الأخ امبرواز ليطلبَ إلى النورمانديَّيْن تخليصَ سيّده ، رئيسِ الدير « ويمر » ، الذي وقعَ في أيدي الخارجينَ على القانون . وصاحَ جبهةُ الثور :

— « ليحمِلِ الشيطان رئيسَ الدير « ويمر » ! كيف نستطيعُ أن نساعدَهُ بينما يستعدّ الأعداء لمهاجمتنا بقوات تبلغ عَشَرةَ أضعافِ قُوّتنا ؟ ! »

قال الراهب :

— « هذا صحيح ! إنهم يتجمّعونَ ويستعدّون للهجوم ! »

وقال دي براسي ، الذي خرَجَ إلى إحدى الشّرُفات وعاد لِتَوّه :

— « إن الراهبَ صادق ، وحَقّ القدّيس دنيس ! إنهم يجلبون وقاءات وتروساً كبيرةً من أجل الهجوم ! أما رماتُهُمْ فهم يتجمّعونَ في ظاهر الغابة كالسّحابة السوداء التي تُنْذِرُ بالمطر ! »

ومضى جبهةُ الثّورِ بدَوْرِه إلى الشّرفَةِ ليَنْظُر . ومن ثَمّ أخذ يوزّعُ رِجالَهُ وينظمُهُم . قال :

— « أنت ، يا دي براسي ، دافِعْ عن الجهة الشرقية ، حيثُ الأسوارُ أقلّ ارتفاعاً ! .. أما أنت ، يا بواجيلبر ، فتَتَولّ الدفاع عن الجناح الغربي ، وأما أنا فسأهتمّ بالحِصْنِ الأمامي ! .. علينا أن نكونَ جميعاً في كل

مكان ، وأن نخفَّ بسرعة إلى حيث يَشْتَدّ الضغط !
صحيحٌ أننا أقلّ عدداً ، ولكنْ في إمكانِنا أن نظفرَ
على هؤلاء الرعاع ، بالشجاعة وسُرْعة الحركة ! ..
إغلِ الزيتَ والقَطْران ، يا « أنسلم » ، لنسْلُقَ هؤلاء
الخونة ! .. أعِدّوا السِّهامَ والقذّافاتِ ! .. إرفعوا
رايتي التي عليها رأسُ الثور ! »

في هذا الوقت كان الجنديّ الراهبُ يراقبُ تحرّكاتِ
المهاجمين . قال :

— « يبدو لي أنّ هؤلاء الرجالَ أكثرُ تنظيماً مما
نَظُن .. فهم يتقدّمونَ بمنتهى الدّراية والحذَر ..
أنا مستعدّ للمراهنة على سلسلتي الذهبية إن لم يكونوا
تحت قيادة رجلٍ خبيرٍ بشؤون الحرب ! »

قال دي براسي :

— « ألا ترى خُوذةَ ودِرْعَ فارس .. أُقسمُ على
أنه هو الذي من سمّيْناه بالكَسْلان الأسود ! »

وتوقّفا عن الكلام لأن العدُوّ كان يتقدّمُ بصورة
خطِرة . ثم التحقَ كلّ منهم بمركزِهِ من أجلِ المعركة .

٢٠ . آيفنهو الجريح

لنعُدْ قليلاً إلى الوراء كيما نفسّرَ وجودَ آيفنهو
جريحاً في تور كلستون .

عندما وقعَ آيفنهو بعدَ المباريات طلبت ريبيكا من
والدها الإذْنَ بأن تنْقله إلى منزلهم في إحدى ضواحي
« أشبي » . وهكذا وضعتْهُ في محفّتها الخاصة وركبت
هي جواداً رغمَ ضيقِ والدِها بأن يراها هكذا مُعَرّضةً
للانظـــار .

هذه المخاوف لدى الوالد كانتْ في محلّها تماماً ،
لأنّ الفارسَ الكاهن ، بريان دي بواجيلبر رأى الفتاةَ
في أثناء الطريق ووضعَ الخطّةَ لاختطافها . وعندما وصلوا
إلى المنزل أخذت ريبيكا ، التي كانت لديها بعض المعلومات
الطبيّة ، تعالج الجريح . وقد أعلنَتْ لوالدِها أن في
الإمكان نقلَهُ إلى يُورْك ، إذا لم تحدث أيّةُ مضاعفات .

وعندما أفاقَ آيفنهو من إغمائه وجدَ نفسَهُ في حُجرة
أنيقة ، مما أثار دَهشَتَهُ . فحاول أن يتكلم ولكنّ ريبيكا
وضعتْ إصبعَها على فمه وطلبتْ إليه أن يَصْمت . ثم
أخذَتْ في تغيير ضِماداته . فلما انتهت سَمَحَتْ له بأن
يُشْبعَ فضوله ، فبدأ يقول :

— « أيتها الفتاة النبيلة ... »

فقاطعته قائلة :

— « أنا لستُ نبيلة ، فلا تخلَعْ عليّ هذا اللقب ..
أنا بنتُ اليهوديّ اسحق اليوركي ، الذي أنقذتَ حياتَه ،
فكان من الطبيعي أن يقدّمَ إليك ، هو وأهلُهُ ، العنايةَ

التي تحتاجُ إليها وأنت في هذه الحالة .»

وبعد أن قضى ليلةً في ذلك المنزل ، أعطتهُ الفتاة مادة مخدّرةً في اليوم التالي ، ومن ثمّ وُضِعَ في المحفّة بكلّ عنايةٍ ليُنْقَل وهو مستريح .

وكان إسحق يريدُ الوصولَ بسرعة إلى يورك ، ومن كثرة ما استحثّ السكسونيين ، الذين يرافقونه ، حدثَتْ مُشادةٌ بينه وبينهم فتركوه وهو في أشدّ الحاجة إليهم . وفي هذا الوقت أدركَهُمْ سدريك ورُوينا ، ووقعَ الجميعُ في الكمين الذي نصبَهُ دي براسي وعصابته . وكان من الممكن ألا يأبهَ أحدٌ للمحفّة ، وأن يتركوها في مكانها ، لولا أن دي براسي فتحها ، مدفوعـاً بالفضول ، فوجدَ فيها فارساً جريحاً . وقد ظن آيفنهو أنه قد وقعَ في أيدي خارجين على القانون لا بُدّ أن يُعْنَوْا به إذا عرَفوه ، فأعلنَ لدي براسي صراحةً أنه هوَ ويلفرد آيفنهو .

والحقيقةُ أن دي براسي ، بالرّغم مما كان يكتنفُ حياتَهُ من فوضى وانحلال ، لم يفقِدْ كلّ أصالة الفرسان ، لهذا احترمَ هذا الرّجل ، الذي لا يستطيعُ الدفاعَ عن نفسه في تلك اللحظة ، رغم أنّهُ غريمُهُ ، ولم يُطْلِعْ جبهةَ الثور على سِرّه ، لعلمه أن هذا ما كان ليُبْقي عليه ، حتى يحتفظَ لنفسه بإقطاعة آيفنهو . وأمرَ اثنين من أتباعِهِ أن يتوليّا حراسةَ المحفّة ، وألاّ يدَعا أحداً

يقتربُ منها . وقد نقل الرجلانِ الجريحَ إلى حجرة منعزلة ، مُعْلِنين أنهُ أحدُ رفاقهما . وهذا ما قالاهُ لجبهةِ الثور نفسه عندما قام بجولة تفقّديّة في القصر .

وعندما أخذَ جبهةُ الثور يوزّعُ القوّاتِ صاح بتابعي دي براسي هذين قائلاً :

« منذ متى كان المقاتلونَ ممرّضين ؟ ! إنطلقا إلى الأسوار ، أيها الشقيّان .. هيه ! .. أورفريد .. تعاليْ أيتها العجوز ، اهتمّي بهذا المريض ! »

ولكن العجوزَ السكسونيةَ سُرعانَ ما أوكلت إلى ريبيكا هذه المُهمّةَ لتنصرفَ إلى تأمّلاتها .

٢١ . المعركة من النافذة

فرحت ريبيكا حين رأت نفسها تعود إلى العناية بآيفنهو . وقد أخبرها آيفنهو أنه يشعرُ بتحسّن كبير ، وأن جسدَهُ لم يَعُدْ يؤلمه ، غير أن الألمَ تحوّلَ إلى روحه ، فهو يعلمُ أنهُ أسير ، والأنكى من ذلكَ أنهُ أسيرُ جبهة الثور . وأطلعَتْهُ ريبيكا على الوضع في القصر ، وقالت له إنّ جبهةَ الثور والجنديّ الكاهنَ يقودانِ حاميةَ القلعة التي تحاصرُها قوّاتٌ غيرُ معروفة .

وكانت الحركةُ في القلعة تشتدّ وتتعاظمُ حتى غدَتْ ضجيجاً هائلاً : فأرجلُ المحاربينَ تدُقّ الأرضَ ،

وهم يتنقّلونَ ويَجرُونَ ، وأوامرُ القادةِ وتشجيعُهم للمحاربين ، واصطدامُ الدروعِ بالدروعِ والحديدِ بالحديد ، وصياحُ المقاتلين ، كلّ ذلك كان يختلطُ ويتردّدُ في دهاليز القصر .

كان آيفنهو يتمنى أن يشتركَ في المعركة التي أوشكتْ أن تندلع . وقال لريبيكا :

— « ليت لي أن أزحفَ حتى هذه النافذةِ كي أرى ، على الأقلّ ، كيف تدورُ المعركة ! .. ليتني أستطيعُ أن أقذفَ سهماً أو أمتشقَ سيفاً .. ولكنني ضعيفُ الجسم مجرّدٌ من السلاح ! »

قالت ريبيكا :

— « لا تُجهِدْ نفسَك ، فهذا من شأنه أن يؤخر شفاءَك ! سأقفُ أنا عندَ النافذةِ وأصفُ لك ما أشاهد ! »

وهكذا اقتربَتْ ريبيكا من النافذة ، التي كانت ترى منها ساحةَ المعركةِ برُمّتِها .

كان هناك مَعْقِلٌ للدفاع عن الباب السرّي الذي خرج منه سدريك . وكانت تَفْصِلُ هذا المَعْقِلَ عن القصر حُفْرةٌ فوقها ألواحٌ خشبية ، تُستخدَمُ كجسر ، فاذا استولى الأعداءُ على المَعْقِل ، فما على المحاصَرين سوى أن يجذبوا نحوَهُم الألواحَ ، فيقطعوا بذلك الاتصالَ بين المَعْقِلِ والقصر . ويبدو أن العَدُوّ يريدُ أن يركزَ

هجومَهُ على هذه النقطة ، لأنّ فرقةً كبيرةً من الرّماة كانت متجمّعةً في ظاهرِ الغابة ، ولم تكن تحملُ أعلاماً ولا شارات . وقالت ريبيكا :

— « إنّ فارساً واحداً ، تَكْسُوه شَكّةٌ سوداء ، هو الذي يقودُ هذه القوة . إنّ درعَهُ تحملُ قطعةَ حديدٍ منفصلةً وقفلاً مدهوناً باللون الأزرق على هذه الأرضيّةِ السوداء ! »

وتمتم آيفنهو بينه وبين نفسه :

— « من يكون ذاك الذي يحملُ هذا السلاحَ الذي أتمنّاه الآن ؟ » ثم رفَعَ صوتَهُ قائلاً :

— « هل ترين قادة آخرين ؟ »

— « كلا ! .. لا بُدّ أنهم يهاجمونَ الناحيةَ الأخرى من القلعة . إنهم يتقدّمون وهم يَحْمُون أنفسَهم بتروسٍ كبيرة ، وبما يُشْبِهُ جُدْراناً من الألواح .. والآخرون يَتْبَعونهم وهم يحملونَ الأقواس ..

هاهم يسدّدون سهامَهُم ! .. آه ! »

وهنا تردّدَتْ أصواتُ الأبواقِ السّكسونية مُعْلِنَةً إشارةَ الهجوم ، وتبعَتْها الطبولُ والزّمور ، وتردّدَتْ أصواتُ المحاربين من طرف إلى طرف .

ولم يكنِ الدفاعُ أقلّ عُنفاً من الهجوم . كان المهاجمونَ يُطْلِقونَ سهامَهُم بدقّةٍ بالغة ، ولكنها كانت عاجزةً

أمامَ دروعِ المدافعين وأسوارِ القلعة .. أما قوّاتُ جبهةِ الثور فقد كانت تُمطرُ السكسونيّين بوابلٍ من الحجارة والسّهام والنّبال وكلِّ شيء ، وتكبّدُهمُ الخسائرَ الكبيرةَ .

وصاح آيفنهو وهو يتميّزُ غيظاً :

— « إنني لا أستطيعُ أن أفعلَ شيئاً ، في حين يتقرّرُ مصيري في هذه المعركة ! .. أنظري .. قولي إنْ كانوا يتقدّمون ! .. يجِبُ أن يهجموا على القلعة ، إن سهامَهُم لا يمكِنُ أن تؤثّرَ في الحجر ! .. ماذا يفعلُ الفارسُ ذو القُفل ؟ »

— « إنّه يَقُودُ جماعةً نحوَ الحاجزِ الخارجيَّ للحِصْنِ الأمامي .. إنهم يحطّمونَ الحاجزَ بالفرّاعات .. إن ريشةَ الفارسِ السوداءِ تخفقُ كأنها غرابٌ يحلّقُ في سماءِ المَعْمَعة .. هاهم يُحْدِثونَ ثغرةً في الحاجز .. ولكنّهم صُدّوا .. جبهةُ الثور على رأسِ المدافعينَ .. يا لَهُ من مشهدٍ رهيب ! »

وتراجعتْ عنِ النافذة ، لأنها لم تَعُدْ تتحمّلُ رؤيةَ هذه الفظائع .. غير أنها اضطُرّت ، تحت إلحاح آيفنهو ، للعودة إلى مركز المراقبة من النافذة .

— « إن جبهة الثور والفارسَ الأسود يتلاقيانِ عند الثّغرة .. » وصرخت :

— « لقد وقَعَ »

وسأل آيفنهو بخوف :

— « من ؟ »

— « الفارس الأسود ! .. كلا ! ها هو ينهضُ مرةً أخرى ويهجم .. إنه يقاتلُ بقوّة خارقة ، كأنَّ في ذراعه قوةَ عشرين رجلاً .. لقد تحطّمَ سيفُه .. ها هوَ يأخذُ بَلْطةَ أحد المقاتلين الانكليز .. إنـه يضربُ جبهةَ الثور بسرعة مذهلة .. ها هو العملاقُ الجبارُ يترنح كأنهُ سنديانةٌ قُطِعَتْ من أسفل .. ها هو يهْوي أصبح على الأرض ! »

— « من ؟ جبهة الثور ؟ »

— جبهة الثو ! .. رجالُهُ يجرونَ نحوَهُ وعلى رأسِهمُ الجنديّ الراهب .. البطلُ الأسْوَدُ يتوقّف .. الرجالُ يحملونَ جبهةَ الثور إلى داخل القصر ! »

— « هل سيطر المهاجمونَ على الحواجز ؟ »

— « نعم .. وهم يشددونَ قبضتَهُمْ على المحاصَرين .. ها هم يرفعونَ السّلالم على الأسوار .. الحجارة والأعمدة وجذوعَ الشجر تتساقطُ عليهم .. ما إنْ يَسْقط رجلٌ حتى يحتلَّ مكانه آخر ... »

— « أيّ الفريقَيْن هوَ المتفوّق ؟ »

— « المحاصَرون ! .. لقد انقلبتِ السلالمُ وتساقطَ الرجال بعضُهم فوق بعضهم .. ولكنْ ها هم المهاجِمونَ

يعودون .. الفارسُ الأسودُ يتقدّمُ نحوَ الباب السرّي ، وفأسُه في يده .. إنهُ يضرِبُ بقوّةٍ هائلة ، غيرَ عابىءٍ بما يتساقطُ عليه منَ الحجارةِ والأخشاب ! »

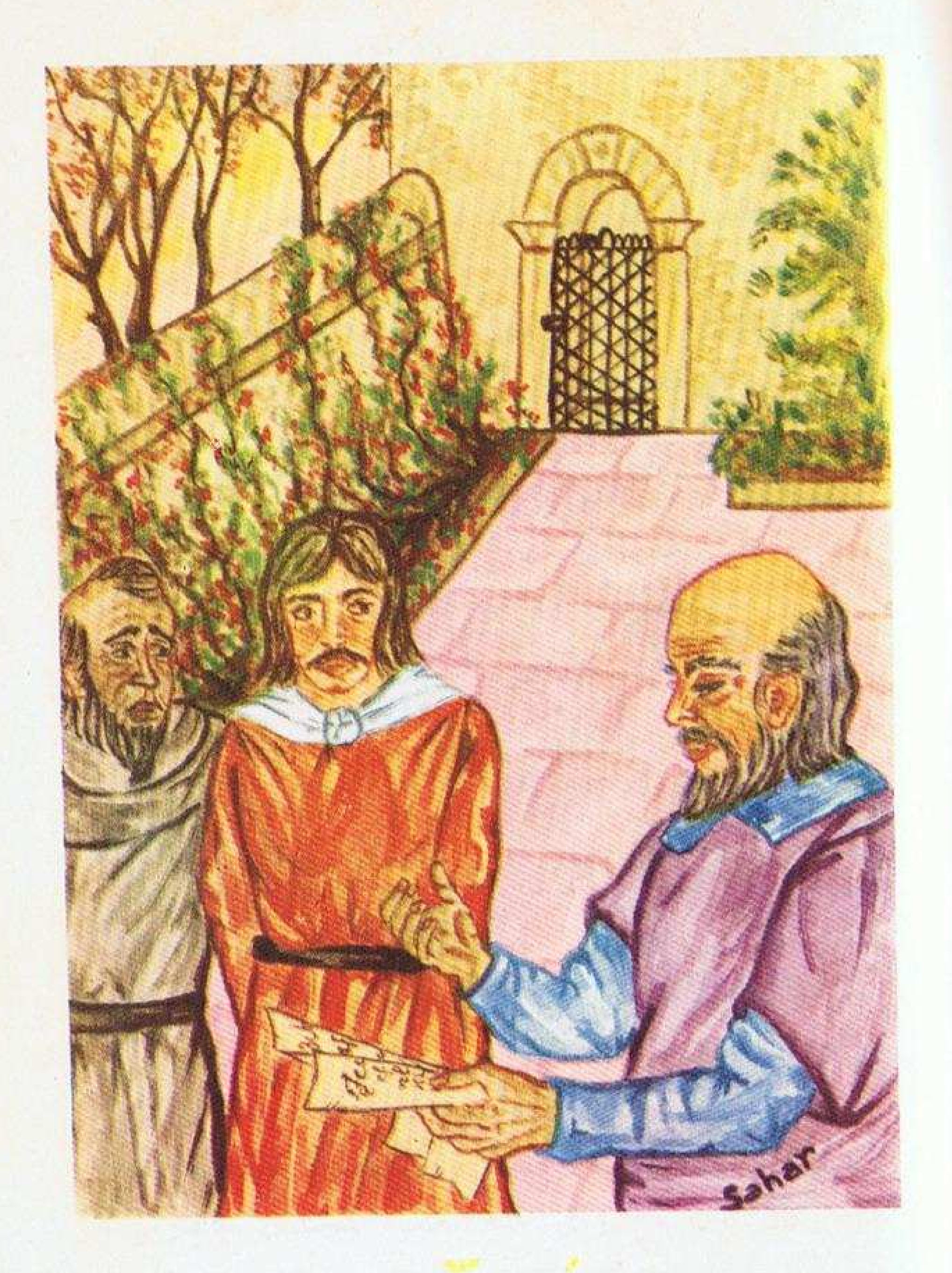
وصاح آيفنهو بجذَلٍ :

— « كنتُ أتخيّلُ أنهُ لا يوجدُ في انكلترا سوى رجلٍ واحدٍ قادرٍ على هذه الأعمال ! »

— « لقد تحطّمَ الباب .. ها هُم يندفعونَ منه .. إنهمْ مُسيْطرونَ على الخارج .. ولكنّ الجنديَّ الراهبَ حطّمَ الألواحَ الخشبيةَ التي فوق الحفرة .. أصدقاؤنا يتحصّنونَ في المركزِ الذي استولَوْا عليه .. المدافعونَ يرْمونَهُمْ بسهامٍ لا تصِلُ إليهم ... »

وقد استولى على آيفنهو التعبُ ، فأغفى وهو يفكّرُ مَنْ يكونُ هذا الفارسُ ذو القُفل الأزرق ، وماذا تعني هذه الشارة . ولما رأتْهُ ريبيكا وقد غرقَ في النوم ، نزلت عن النافذةِ والتفّتْ بمِعْطفِها ، وجلستْ على مسافة من سريرِ الجريح ، وهي تدعو اللهَ أن يَشُدَّ عزيمتَها حتى تتحمّلَ المخاطرَ الخارجيةَ ، وتتمكّنَ ، بصورةٍ خاصة ، من السيطرة على تلكَ العاطفة التي بدأت تغزو قلبَها ، حتى لا تتعلّقَ بشخص لا أملَ لها في الظفرِ به !

* * *



المعلم الكبير يقرأ الرسالة

٢٢ . فارس يستسلم

بعد أن حصلَ الفارسُ الأسوَدُ على هذا النجاح الجزئي، طلب من لوكسلي أن يُشاغلَ المدافعينَ من الجهة الأخرى ، بينما أمرَ رجالَهُ بأن يَصْنَعوا جسراً ليُلقى فوق الخندق . وما إن انتهى صُنْعُ هذه الطوّافة حتى أُلقِيَتْ ، وانطلق عليها الفارسُ الأسوَدُ وسدريك ، وأقبلا على البابِ الكبير ، يضربانه بفرّاعتَيْهما . ولم يستطِعِ الرجالُ الذين تَبعوهما أن يَقْطَعوا الجسر ، فقد تساقطتْ عليهمُ السّهامُ من أعلى السّور ، فسقطَ منهم أوّلُ رَجُلَيْن ، وتراجعَ الباقونَ وراء متاريسِهم . بهذا أصبحَ موقفُ الفارسِ الأسود وسدريك السكسونيّ في غاية الدقّة .

وصاح دي براسي على الرّجال الذين يدافعونَ عن الحِصن الأمامي :

— « يا لَلعار ! أتدّعون أنكم رُماةٌ مَهَرةٌ وتتركونَ هذين الكلبَيْن على قيد الحياة تحتكم ! ؟ حطّموا هذه الحواجزَ وألْقُوها على رأسَيْهما ! إيتوني بمعاولَ ومُخُول وزحزحوا هذا المتراس ! »

قال هذا وهو يشيرُ إلى حجرٍ ضخمٍ منحوتٍ يشكّل ترويسةً لأحد الأعمدة ويقومُ فوق الباب .

وكان أوّل من رأى هذا الخطرَ المُحْدِقَ بالفارس

الأسود وبسدريك ، هو لوكسلي ، فصاح برجاله يشجّعهم ، وأطلق سهماً أردى به رجلاً كان يوشك أن يقتلع قطعةً من المتراس ويُلقيها على الفارسيْن .. ولقيَ رجلٌ بجانبه نفسَ المصير ، فتراجع الرجال . وصرخ فيهم دي براسي :

— « أعطوني هذا المُخْل ، أيها الجبناء ! » ثم راح يعملُ بنفسه على زحزحة الحجر ، الذي لا بدّ أن يقضي على الفارسيْن البطلين . وأطلق لوكسلي ثلاثة سهام على دي براسي ، ولكنّ السهام الثلاثة تحطّمتْ رؤوسها على درع هذا الفارس .

وراح لوكسلي يصيحُ ليحذّر الفارسيْن من الخطر المُحْدق بهما ، ولكنّ صوتهُ كان يضيع بين الضجيج والعجيج . وبدأ الحجرُ يترنّح يريدُ أن ينقضّ . وانطلق غورث كالسّهم بإقدامٍ بطولي ليُنْقذ سيّده أو يموت معه . ولكنّ صوتَ الجنديّ الكاهنِ ارتفع في تلك اللحظة منادياً دي براسي :

— « لقد ضاع كلّ شيء ، يا دي براسي ، والنيرانُ مشتعلةٌ بالقصر . »

— « أنت مجنون ! »

— « اكتسحت النيرانُ الجهةَ الغربية ، وقد حاولتُ إخمادها فلم أفلِحْ ! »

كان بواجيلبير يتحدّثُ بهدوئه المعهود .. وأضاف قائلاً :

— « إجمعْ رجالك واخرجوا من الباب السّري .. لم يجتز الخندقَ سوى رجلَيْن اثنين ، فارموهما في الماء ... أمّا أنا فسأخرُجُ من الباب الكبيرِ وأهاجم الحصنَ الأماميّ من الخلف ، فإذا استطعنا الاستيلاء عليه استطعنا أن نصمدَ إلى أن تصِلَ إلينا الأمداد ، وإلاّ استسلمْنا بشروطٍ مشرّفة . »

ولم يتردّدْ دي براسي لحظةً في تجميع رجاله ، وكان على وشْكِ الخروجِ من الباب ، عندما انهارَ هذا البابُ تحت ضرَبات الفارس الأسْوَد الذي اندفعَ كالبلاء . وصاح دي براسي برجاله يستحثّهم ويقول : « أتدَعُونَ رجُليْنِ اثنيْن يسُدّانِ علينا طريقَ الخلاص ؟ .. إن القصرَ يشتعلُ في ظهورنا .. دَعُوْني إذن ألتقي هذا الفارس ! »

والتحم دي براسي ، الذي كان يرْفعُ سيفَهُ ، والفارسُ الأسْوَدُ المسلّحُ ببلطتِهِ . ودارت بين الاثنيْن معركةٌ رهيبة . أثبتَ فيها دي براسي أنّهُ فارسٌ مغوارٌ ، ودافَعَ عن اسمِهِ بكل جدارة ، ولكنّهُ سقَطَ آخرَ الأمر على الأرض من ضربة لولا درعهُ لقضَتْ عليه القضاءَ المُبْرَم . عندئذ وضعَ الفارسُ الأسودُ خنجرَهُ

في أحدِ شقوقِ الدِّرْعِ التي يرتديها دي براسي ، وصرخ فيه :

— « استسلِمْ ، يا موريس دي براسي ، سواء أأنجدْتَ أم لم تُنْجَدْ ، وإلا فاعتبِرْ نفسكَ مَقْضِياً عليك ! »

قال دي براسي بصوتٍ ضعيف :

— « لن أستسلمَ إلى رَجُلٍ لا أعرِفه .. قل لي اسمَكَ ، أو اقضِ عليَّ في الحال ! »

فهمس الفارسُ الأسْوَدُ في أذنه بضعَ كلمات ، فإذا بدي براسي يستسلمُ دون قيدٍ أو شرط ، وينتقلُ من حالة التعالي والصَّلَف إلى حالة الخضوع والطاعة !

وقال له الفارسُ الأسود :

— « إذهبْ إلى الحِصن الأمامي وانتظِرْ أوامري ! »

وقال له دي براسي :

— « قبلَ كل شيء أريدُ أن أخبرَكَ أن ويلفرد آيفنهو جريحٌ وأسيرٌ في هذا القصر ، وإذا لم تُنجدوهُ بسرعةٍ مات في الحريق ! »

— « ويلفريد آيفنهو أسيرٌ وجريحٌ وفي خطر ؟ ! لو احترقتْ شعرةٌ واحدةٌ من رأسه كنتم جميعاً مسؤولين ! أين هو ؟ »

— « هذه السلَّمُ اللّولبيةُ تؤدي إلى حجرته ! .. هل تقبلُ بأن أقودَكَ إليه ؟ »

— « كلا ! انتظِرْ أوامري في الحِصْن الأمامي ،

فأنا لا أثقُ بك ، يا دي براسي ! »

والتقطَ دي براسي سيفَهُ ، وخلعَ خُوذتَهُ ، كعلامة على الاستسلام ، وسارَ إلى حيث أمرَهُ الفارسُ الأسودُ أن يبقى . وفي طريقه التقى لوكسلي فسلّمه سيفه .

هذا وكانتِ النيرانُ قد اشتدّتْ وامتلأتْ حُجرةُ آيفنهو بالدخان ولم تَعُدْ ريبيكا تُميّزُ شيئاً . وانفتح البابُ فجأةً ، ودخلَ منهُ الجنديّ الكاهن ، وعليه آثارُ الدماء . قال لريبيكا :

— « هأنذا قد وجدتُكِ أخيراً .. لقد بَرَرْتُ بوعدي .. تعالَيْ معي فليس لكِ من أملٍ في النجاة سوى أن تتبعيني ! »

— « لن أتبعكَ إلا إذا أخذْتَ أيضاً والدي وهذا الفارسَ الجريح ! »

وبالرغم من صُراخِها واحتجاجِها حمَلَها ومضى ، بينما كان آيفنهو يشتمُهُ ويتوعّدُه .

— « لولا أنكِ صرختِ لما عرفتُ صوتَكِ ومكانَكِ » .

كان هذا هو كلامَ الفارسِ الأسودِ الذي دخلَ في اللحظة . قال آيفنهو :

— « إن كنت فارساً حقيقياً فأنقِذْ أولاً ليدي رُوينا والنبيل سدريك ! »

— « كلَّ في دَوْره ! »

هكذا قال الفارسُ ذو القُفْل بصورة حاسمة ، ثمّ حمل آيفنهو بين يديْهِ بمثل السهولةِ التي حمل بها بواجيلبير الفتاةَ اليهودية .

ولما أوصلَه إلى الحِصْنِ الأماميّ وكّلَ به اثنيْن من المقاتلين الانكليز ، ثم عاد إلى القصر ليعملَ على إنقاذ الأسرى الآخرين .

ولم تكنِ النيرانُ تمتدّ بسرعة في القصر بفضل الجدران السميكة . على أنّ المعركةَ ظلّتْ دائرةً في الأجزاء التي لم يصِلْ اليها الحريق . كان المهاجمونَ يقاتلونَ بشراسة أولئك الذين كانوا يضطهدونهم ، ويقتلونَ رجالَ جبهةِ الثور دون رأفة أو مهادنة .

وفي ساحةِ القصرِ كان يتجمّعُ بعضُ الرجال حول بواجيلبير ، ليحاولوا مغادرةَ القصر ، الذي ما إن انخفض جسرُهُ المتحرّكُ حتى اندفعتْ إليه الجموعُ التي كانت تضربُ حوله النّطاق . هنالك دارت معركةٌ طاحنةٌ ، استبسلَ فيها رجال بواجيلبير ليعوّضوا بالشجاعة ذلك الفارقَ الكبيرَ بين عَدَدهم وعَدَد المهاجمين . وكان بريان ينطلقُ كالمارد في كلّ اتجاه ويحمي بتُرْسِهِ ريبيكا التي كانت على فرس وحولهَا عبيدُه .

واستغلّ فترةً من التراضي ، فخرجَ من الباب الكبير واتجه نحوَ الحصنِ الأماميّ ، ظناً منه أنّهُ في حوزةِ

دي براسي . ولما وصلَ صاح :

— « دي براسي ، أأنت هنا ؟ »

— « نعم ، ولكنني أسيرٌ ! »

— « هل أستطيع معونتَك ؟ »

— « كلا ، فقد استسلمتُ نهائياً ، وسأحافظُ على كلمتي ! .. أهرُبْ ، يا بريان ! فقد انطلقت العُقبان ! .. إجعلِ البحرَ بينك وبين انكلترا .. إنني لا أجرؤ على أن أقولَ لك أكثرَ من هذا ! »

— « العُقبانُ سيحطمونَ مناسِرَهم * على أسوار « تمبلستو » التي ستكون الملجأَ الأمين ! »

قال هذا ثم انطلق وحاشيتُه بعيداً عن القصر . أما باقي النورمانديين ، الذين لم تكنْ لديهم خيولٌ ليمضوا بها معه ، فقد باعوا حياتَهُمْ غاليةً ، ولكن لم يبقَ منهم أحد .

٢٣ . رجال الغابات

في فجرِ اليومِ التالي كان جميعُ الخارجين على القانون متجمعينَ تحت سنديانة « هارت — هيل — ووك » ، التي كُوِّمَتْ عندَ جذعِها الأسلابُ العظيمةُ التي استولَوا عليها من قصر توركيلستون . وقد جلس لوكسلي على

* المنسر : منقار الطير الجارح .

ما يُشبه عرشاً من الحشائش ، وأجلس الفارسَ الأسْوَدَ عن يمينه وسدريك عن يَساره . قال :

— « أرجو أن تَعْذُراني ، أيها السيّدان النبيلان ، إن جلستُ هكذا في مكانِ الصّدارة ، فالواقعُ أنني مَلكٌ في هذه الغاباتِ ولن يَرْضى رجالي أن أتنازلَ عن مكاني لأيٍّ كان .. إختَرْ ، أيها النبيل سدريك ، ما تريد من بين هذين القسمَيْنِ من الأسلاب ما يُعْجِبُك كيما توزّعَهُ على أنصارك ! »

— « أيها الانكليزيّ الشجاع ! أنا غنيّ بما فيه الكفاية ، بحيث أستطيعُ أن أكافىءَ أعواني من مالي الخاص .. إن ليدي رُوينا تريدُ أن تعود إلى روذروود ، وهي في حاجة إلى حماية ، ولم أشأ أن أغادر هذا المكان قبل أن تتجمّعوا كلّكم ، لكي أشكرَكم ، أنت ورفاقكَ البواسل، على ما بذلتموه للمحافظةِ على شرفِ وحياة ربيبتي ! »

وهنا التمعت دمعةٌ في عيني سدريك من التأثر ، وهو يذكر ما تعرّضَت له رُوينا من المخاطر ، فقال « ومبا » :

— « إن كنتَ تريدُ أن تدفعَ إلينا مكافأتَنا دمعاً ، فعليّ أن أبكي أنا بدَوْري ، وهكذا أتخلّى عن وظيفتي الأساسية ! .. إن لي عندك طلباً ، يا عمي : أرجو أن تعفُوَ عن صديقي غورث ، الذي سرقَ منك أسبوعَ خدمةٍ ، ليكرّسهُ لخدمة ابنك ! »

— « أعفو عنه ؟ هذا غيرُ كافٍ على الاطلاق ! .. تعال هنا ، يا غورث ، اقتربْ .. إركع أمامي ! »

فامتثلَ العبد ، فقال سدريك وهو يلمسُ كتِفَهُ بِعَصاً قصيرة :

— « من الآن فصاعداً أنت « فولك فري سغلس ، رجلٌ حرّ في المدينة والريف ، في الغابات والحقول ! .. وعلاوةً على ذلك أهبُكَ من ممتلكاتي في « وولبروغهام » عشرةَ أكرات من الأرض (الأكر يساوي أربعة آلاف متر مربع) تتمتّعُ بها وتورثُها ذريّتَكَ من بعدك ! »

نهض غورث وهو رجلٌ حرّ .. الدنيا لا تَسَعُهُ من الفرْحة الطاغية التي شملَتْ كيانَهُ وتغلغَلَتْ في أعمقِ أعماقِ كيانه .. كيف يُعَبّرُ عن هذه الفرحة ؟ إنهُ لا يدري ! لقد أخذ يقفز ويتشقْلَبُ كالجَدْي المرِح .

في هذه اللحظةِ سُمِعَ صَوْت خيول قادمة ، ثم أطلّتْ ليدي رُوينا ، وهيَ تمتطي جواداً رائعاً وحولها أتباعُها المسلّحون ، الذين كانت وجوهُهُم تطفَحُ بالبِشْر ، لعودةِ سيّدتِهِم المحبوبةِ إلى حياة الحرية .

ونهضَ لوكسلي وجميعُ الرّجال لتحيّتها فانحنت برِقّة ، وشكرت محرّريها بكلمات لطيفة . وقبل أن يرْحلَ سدريك أعربَ عن امتنانِهِ للفارس الأسود ، ودعاهُ بإلحاح إلى زيارتِهِ في روذَرْوود . قال الفارسُ

الأسود رداً على كلمات سدريك :

— « إن سدريك قد جعلني غنياً ، إذ عرّفني بقيمة السكسونيين ! لسوف تراني قريباً في روذروود ، حيث سأتقدّم إليك بطلب أمتحنُ به كرمَكَ مرةً أخرى ! »

— « طلبُكَ مستجابٌ سلفاً ، حتى ولو كان نصفَ ثروتي ! »

وحيّت ليدي رُوِينا الفارسَ الأسود بدَوْرها ، ثم انطلق سدريك ومن معه ، وما لبثوا أن اختفَوْا وراء أشجار الغابة الباسقة .

بعد رحيلِ سدريك عاد لوكسلي يقْسِمُ الأسلابَ ، فطلب من الفارسِ الأسودِ أن يختار ما يشاء ، فقال الفارس :

— « إنني أقبَلُ عرْضَكَ الكريمَ هذا ، وأطلبُ منك ، على هذا الأساس ، أن أتصرّفَ بمصير موريس دي براسي ! »

— « إنه مِلْكُكَ قبلَ هذه اللحظة .. وهذا من حُسن حظّه بالطبع ، ولولا ذلك لكان الآن يتأرجحُ تحت أعلى فرعٍ من هذه السنديانة ! »

قال الفارس الأسود :

— « موريس دي براسي .. أنت حُرٌّ ! يمكنُكَ أن تغادرَ هذا المكان .. ولكنْ كنْ حذِراً في المستقبل ، إذ في المرة القادمة قد تصابُ بمكروه ! لا تَنْسَ هذا ،

يا موريس دي براسي ! »

ولم يَرُدّ دي براسي بأيّ كلمة ، بلِ اكتفى بالانحناء بكلّ تعظيم ، ثمّ امتطى أحدَ جيادِ جبهةِ الثور ، وتوارَى خلْفَ الأشجار .

هنالكَ نزَعَ زعيمُ الخارجين على القانون بُوقَهُ وحِمالَتَهُ وقدّمَهما إلى الفارسِ الأسْوَدِ قائلاً :

— « أيها الفارسُ الشريف ، أرجو منكَ أن تتقبّل هذه الهديّةَ كتذْكار لنهارِ أمس .. إن احتجْتَ يوماً إلى مساعدة — وهذا كثيراً ما يحدث لأيّ فارسٍ في هذه الغابات فانفُخْ في هذا البوق ثلاثاً ، هكذا — وطبّقَ القوْلَ على الفعل — وستجدُ في الحال رجالاً يقدّمون إليك العوْن ! »

— إنني أشكُرُكَ على هديّتك ، يا عزيزي ! لن أجِدَ في أخطر الساعات معونةً ثمينةً كمثلِ معونتِك ومعونةِ رفاقِكَ الشّجعان ! »

ثم عَمَدَ إلى البوق فنفَخَ فيه كما فعَلَ لوكسلي .

وفي هذا الوقت صدَرَت عن الجمع أصواتُ دَهَش مُحيّيَةً مقْدَمَ الناسك الجريء ، الذي كان يَجُرّ اسحق اليوركي بسلسلةٍ ربَطَها في عنُقِه . وصاح لوكسلي :

— « منْذا الذي تقودُهُ إلينا ؟ »

— « إنه أسيرٌ استوليتُ عليه بسيفي ورمحي ، أو

بقوسي وسهمي ، أيها القائد النبيل ! فبينما كنت أتجوّلُ
في أقبيةِ القصر ، عثرتُ على قبوٍ متينِ الباب ..
قلتُ في نفسي لا بُدّ أن النورمانديّ وضعَ في هذا القبو
أفخرَ خمورِهِ ! .. فأدرْتُ المفتاحَ فإذا بي أجد مَوْقداً
وسلاسلَ وقضباناً من الحديد . وفي زاوية من الزوايا
رأيتُ هذا اليهوديّ ، الذي استسلمَ إليّ في الحال . وقد
وَعدَ بأن يَهَبَ جميعَ ثَرْوَتِهِ لجماعتنا المقدّسة ! »

وصاح إسحق :

— « تأكّدوا ، أيها السادة المحترَمون ، أنّهُ لم
يَصْدُرْ عني أيّ وعدٍ من هذا النوع ! .. إنني لست
سوى عجوزٍ فقيرٍ من الممكن أن يكونَ قد فَقَدَ ابنتَهُ
إلى الأبد .. إرحموني ، ودَعُوْني أمضي في حال سبيلي ! »

قال لوكسلي :

— « فَكّر ، أيها اليهوديّ ، في ما يمكنكَ أن
تَدْفَعَهُ إلينا ريثما نَنْظُرُ في أمرِ أسيرٍ آخر ذي
مكانةٍ كبيرة ! »

وكان محاربان انكليزيان قد قدّما « ايمر » ، رئيسَ
دير جورفولكس إلى قائد الخارجين على القانون .

٢٤ . الفدية

وقف رئيسُ الدير « ويمر » وقد بدا عليه الغضبُ

لكرامته الجريح وأماراتُ الخوف والاضطراب ، قال :

— « ماذا يعني ، أيها السادة، هذا التصرّفُ حيالي ؟
ألستم مسيحيين لتوقفوا رئيسَ دير جورفولكس وتجرّدُوه
من حُليِّهِ وتنهبوا متاعَهُ وتحملوهُ على قضاء الليل
مع جماعةٍ من الأفّاقين ، بعد إهانتِهِ بشتى الطرق ؟ ! »

— « نحن مسيحيّون ، ولكنّ عليك ، أيها الأبُ
المحترَم ، أن تدفعَ لنا فِدْية ! »

— « ما دام الأمرُ كذلك فكم تطلبون ؟ »

وكان نائب القائد رجلاً فكِهاً ، فقال :

— « ما رأيُكم لو نطلبُ إلى اليهوديّ أن يحدّدَ فِدْيَةَ
الأب ونطلب إلى رئيسِ الدير أن يحدّدَ فِدْيَةَ اليهوديّ ! »

وجيء باليهوديّ فقال له لوكسلي :

— « أترى ، أيها اليهوديّ ، إلى الأب المحترَم ويمر ،
رئيس دير جورفولكس ؟ .. قل لنا مبلغَ الفِدْيةِ التي
نستطيعُ أن نَفْرِضَها عليه ! »

قال اليهوديّ :

— « إن هذا الدير غني جداً ، وهو يحتوي على
أشياء ثمينة من كل نوع ... »

وصاح رئيسُ الدير وهو يوجّه إلى اليهودي نظرةً
صاعقة :

— « يا لكَ من يهوديٍ خبيث ! »

قال لوكسلي :

— « حسناً .. حدّدِ الفدية ، يا إسحق ! »

— « في وُسْع رئيس الدير الطيّب أن يدفعَ ستمئة كورون (ليرة ذهبية) إلى مقامكم السامي دون أن يتضايق ! »

— « وكيف لي أن أدفعها ؟ .. لا بُدّ من ذهابي إلى جورفولكس ! »

قال لوكسلي :

— « كلا ! .. أنت تبقى هنا مُعزّزاً مكرّماً ، ويذهبُ الراهبان اللذان معكَ ، ليأتيا بالمال . »

وحاول اليهوديّ أن يتقرّبَ من لوكسلي ليكسبَهُ إلى جانبه فسارعَ إلى القول :

— « أنا مستعدّ أن أرسِلَ إلى يورك من يحملُ إليكم ستمئةَ كورون ويحرّر لي رئيسُ الدير سنداً بذلك ! »

أجاب لوكسلي :

— « هذا رائع ! .. وفي الوقت نفسهِ تأتي بفديتك ! »

— « فديتي ؟ ! يا ويْلنا ! أنا لستُ سوى رجل مسكين فقير ، فلو طُلِبَ إليّ أن أدفَعَ خمسين كوروناً فقط لتحوّلْتُ إلى متسوّل ! »

— « ليكُنْ رئيسُ الدير حكَماً في هذه المسألة ! .. ماذا تقولُ أيها الأب المحترم ويمر ؟ هل يستطيعُ هذا اليهوديّ أن يدفَعَ فديةً محترمة ! »

— تسألُ إن كان يستطيع ؟ ! عجباً ! أليس هو اسحق اليوركي ؟ إن في إمكانه أن يدفَعَ فديةَ القبائل اليهودية العَشْرِ التي في يد الأشوريين ! وبما أنكم تسألونني أن أحدّد رقماً ، فانني أؤكّدُ لكم أنكم تُخطِئون إن قبلْتُمْ منه أقلّ من ألف كورون ! »

صاح اليهودي :

— « ليَكُنِ اللهُ في عوني .. لقد فقَدْتُ بنتي وها أنتم تجرّدونني من أيّ وسيلة للعيش ! آه يا ريبيكا ! لو كانت كلّ ورقة من أوراق هذه الأشجار سَكيناً (قطعة نقد فضية) وكانت كلّها ملكي لبذلْتُها عن آخرِها كي أعرِفَ ما حلّ بكِ ، يا بنيّتي ! »

وسأله أحد الخارجين على القانون :

« إبنتك ؟ .. هل لها شعرٌ أسوَدُ وتضعُ على وجهها نقاباً مطرّزاً بالفضة ؟ »

— « نعم ، نعم ! .. إنها هي ! أين هي ؟ »

— « لقد أخذها الجنديّ الكاهنُ مساء أمس ، وهو هارب ! »

وقال لوكسلي :

— « قلِ الحقيقة : أصحيحٌ أنه لن يبقى لكَ شيء إذا أخذنا منك الألفَ كورون ؟ »

— « يبقى لي القليل ! »



وامبا يسعى لإنقاذ سيّده ٨

— « لن نكون متشدّدين معك .. لقد تأثّرْتُ لحالك .. وعلى هذا تدفعُ إلينا خمسمئةَ كورون ، والخمسمئةُ الأخرى تدفعُها فديةً لابنتك . »

واستقرّ الرأيُ على أن يدفعَ اليهوديّ إعانةً للدير لقاء تدخّل رئيس الدير ويمر لدى بريان دي بواجيلبير ، الذي ذهبَ إلى دير جورفولكس ، كيما يعيد إليه ابنته . وعلى أثر ذلك كتب الأبُ ويمر خطاباً إلى بواجيلبير ، وختَمَهُ بختمه ، حتى يسمَحَ لليهوديّ أن يصلَ إلى بواجيلبير . وأخذ اسحق الكتابَ ومضى يرافقهُ اثنان من رجال الغابات الأشداء لكي يُعيناه على قطع الغابة بسلام .

أما الفارسُ الأسودُ ، الذي كان يتابعُ هذه المشاهد بمنتهى الاهتمام ، فقد استأذن قائدَ الخارجين على القانون وشدّ على يده بحرارة ، ثم امتطى جوادَهُ ، وانطلق عبْرَ الغابة .

٢٥ . المؤامرة

لم يَمْضِ على سقوطِ قَصر توركيلستون يومٌ واحدٌ حتى انتشرَ الخبرُ في يورك بأن دي براسي وبواجيلبير وجبهةَ الثور قد قُتِلَ منهم من قُتل وأصيبَ من أصيب . ونقل ولدمار فيتزورس هذا النبأ إلى الأمير حنا الذي

داخلَهُ الفزع ، لأنه كان يعلَمُ أن هؤلاء الفرسانَ كانوا يريدونَ القبضَ على سدريك السكسونيّ ومَنْ معه . لو حدثَ ذلك في مناسبة أخرى لضحكَ الأمير ، أما في هذا الوقت بالذات ، فإنّ ما أصاب هؤلاء الأتباعَ من شأنه أن يَقْلِبَ مشاريعَهُ رأساً على عقِب .. وصاح غاضباً :

— « يا لَلأنذال ! .. وما العملُ الآن ؟ »

— « لقد احتَطْتُ للأمر قبْلَ أن آتيَ إلى سُمُوّك . فقد أصدرْتُ الأمرَ إلى نائب دي براسي ، لويس ونكلبرند ، ليركبَ في عدد من الرجال ويذهب ، وهو يرفعُ الأعلام ، إلى قصر جبهةِ الثور لنجدة أصدقائنا . »

— « في الحقيقة كنتَ جريئاً أكثرَ مما ينبغي لتتخذَ مثلَ هذا القرار دون إذن مني .. إنّ دقّ النفيرِ ورفْعَ علَمي في مدينة أنا موجودٌ فيها لأمر في منتهى الجرأة ! ولكنّ نيّتَكَ الحسنةَ تشفعُ لكَ عندي ! .. يا لله ! .. ماذا أرى ؟ .. دي براسي ؟ ! وفي أيّ حالة ، يا إلهي ! »

كان الرجلُ القادمُ هو دي براسي بالفعل ، وكان أشعَثَ أغبَرَ ، مُبعَّجَ الدرعِ مُحطَّمَها . ووضَعَ دي براسي خُوْذَتَهُ على رأسِهِ ووقَفَ أمامَ الأميرِ صامتاً . قال الأمير :

— « ما معنى هذا ؟ .. تكلّمْ .. أين جبهةُ الثور

والجنديّ الكاهن ؟ »

— « الجنديّ الكاهنُ نجا بنفسه . أما جبهةُ الثور فلن تراه بعد الآن : لقد وَجدَ قبراً بين اللّهب في قصره . وقد نجوتُ أنا من الكارثة لآتيَ إليك وأنبئكَ بما حدث ! »

— « يا له من خبر يَبُثُّ الصّقيعَ رغم هذا الحريق ! »

— « لم أطلِعْكَ بعدُ على ما هوَ أخطرُ من ذلك بكثير ! » واقترب من الأمير وهمس في أذنه قائلاً :

— « ريتشرد قلب الأسد موجود في انكلترا ! .. لقد رأيتُه ، وتحدّثتُ إليه ! »

فامتقع لونُ الأمير وترنّح ، وكاد يسقطُ لولا أن تمسّكَ بمسند أحد المقاعد . قال فيتزورس :

— « وماذا تنوي أن تفعل ، يا دي براسي ؟ »

— « أنا ؟ .. سأتوجّهُ إلى « هال » ومنها سأبحرُ إلى « فلاندر » حيث لن أعدمَ وسيلةً لاستخدام ذراعي ! .. وأنت ؟ تعالَ جرّبْ حظكَ معي ! »

— « كلا ! فإنّ سنّي لا تساعدُني على ذلك .. سألتجىء إلى كبير أساقفة يورك ، فهو صديق لي ! »

أثناء هذا الحوار أفاق الأميرُ من ذهوله ، وأخذ يُتابعُ الحديثَ باهتمام . قال في نفسه : « إنهما يتخلّيان عني ، كما تنفصلُ الورقةُ عن السّنديانة إذا هبّت الريحُ الشّمالية ! » ثم قطعَ حديثَهما وهو يُطلِقُ ضحكةً مغتصبةً ويقول :

— « عهدي بكما من الرجال الحكماء الحذِرين الحريصين ، فما بالُكما تدُوسان على السّيادة والثروة واللذائذ ، وكل ما تَعِدُنا به محاولتُنا النبيلةُ من مكاسبَ ، في الوقت الذي نستطيعُ فيه أن نحقّقَ آمالَنا بضربة جريئة ؟ ! أوَ تريدُ أن تهربَ ، يا دي براسي ؟ ! ولكنّ رجالَ روبرت استوتفيل وكونت أسكس سيقبضون عليك قبل أن تُدرِكَ هال ! .. وأنت ، يا فيتزورس .. إعلم أن صديقَكَ ، أسقفَ يورك ، مستعدّ لتسليمك على درَجات المذبح ، حتى لا يَدخلَ في مشاكل مع الملك ريتشرد قلب الأسد ... إعلما أنه ليس لدينا سوى وسيلة واحدةٍ للخلاص : إن الذي يسبّبُ رُعبَنا يسافرُ الآنَ بمفرده ، فلنسِرْ للقائه ! »

فسارع دي براسي إلى القول :

— « أنا لن أستطيعَ الاشتراك ، فلقد عفا عني بعد أن أصبحتُ أسيراً بين يديه .. لن أرفعَ يدي يوماً إلى ريشة خوذته ! »

— « ومَنْ يقولُ بالقضاء عليه ؟ .. إنني أفضلُ إلقاءه في السجن ! .. ألم يقضِ عمّنا روبرت كلّ حياتِهِ في قلعة كارديف ؟ »

قال ولدمار :

— « ليكن ! .. ولكنْ من رأيي أنّ أفضلَ سجنٍ

هو سجن الحفّار ! » .

قال دي براسي موكّداً موقفه مرةً أخرى :

— « سواء أكان القبر أم السجن ، فأنا أنفض يدي من هذه المسألة : لقد وهبني الحياة ، ولهذا لن أرفعَ إصبعاً ضدّه ! » .

قال الأمير معاتباً ومنخيّاً :

— « كذلك تتخلى عني بعْدَ كل مظاهر الولاء والطاعة ! » .

— « إنني مستعدّ أن أخدمكَ بكلّ إخلاص ، كفارسٍ شريف .. أما أخلاقُ قُطّاع الطّرُقِ هذه فهيَ لا تتفقُ مع مبادئي ! » .

— « يا لي من أميرٍ سيىء الحظّ ! كان لدى والدي هنري أتباعٌ يعملون كلَّ شيءٍ من أجل ارضائه ! ولكنّ الاخلاصَ الذي كان يتميّزُ به ريجينالد فيتزورس مثلاً قد فسَد ، لسوء الحظ ، عند ابنِه ! » .

فردّ ولدمار قائلاً :

— « إنه لم يفسُدْ على الاطلاق ، والدليلُ على ذلك أنني سأتولى هذه العمليةَ الخطِرة بنفسي ! .. دي براسي ، إسهرْ على سلامة الأمير ، وأشعِلْ حماسةَ المتقاعسين .. إلى اللقاء ، أيها الأمير ، في ظروفٍ أفضل ! » .

بعد هذا غادرَ فيتزورس القاعة . قال الأمير حنا :

— « تصورْ أنهُ يريدُ أن يأسر أخي ريتشرد قلب الأسد بمثل هذه الاستعدادات الضئيلة كأنه سكسونيّ بسيط ! » .

وراح يذرعُ القاعةَ ذهاباً وإياباً ودي براسي إلى جانبه ، وبعد لحظة سأله :

— « ما رأيُكَ ، يا عزيزي دي براسي ، في فيتزورس هذا ؟ .. إنه يحلم بأن يصبحَ مستشارنا .. ولكننا سنفكر كثيراً قبل أن نرفعه إلى هذا المنصب الخطر .. إنه لا يحملُ لبيتنا ما ينبغي من الاحترام ، إذ يعاملُ أخانا ريتشرد بهذه الخفّة .. إنني أفضل موقفكَ المستقيمَ الشريف .. إن قبضةَ على أخينا يجعلهُ غيرَ جدير بمنصب المستشار ، وعلى العكس من ذلك تمتّعُك الذي يؤهّلكَ للماريشالية .. فكّر في الأمر مليّاً ، وقم بواجبك ! » .

ولما مضى دي براسي عنه تمتم قائلاً :

— « يا لكَ من طاغيةٍ متلوّن ! مجنونٌ من يركنُ إليك ! .. ومع ذلك هل أرفضُ أن أكون ماريشال انكلترا الأكبر .. المنصب يستحق أن يُضحّى من أجله ! »

وعندما أصبح الأميرُ حنا وحدَهُ استدعى هيغ باردون ، رئيسَ الجواسيس وسأله عن الإجراءات التي اتخذها فيتزورس . فأخبره بأنه أخذ معه اثنينِ من الرجال العارفين بمسالك الغابات الشماليةِ وقصّاصي الأثر ، كما اصطحبَ معه خمسةً من المقاتلين .

— « حسناً ! .. الآنَ أريدُ منك أن تراقبَ موريس دي براسي مراقبةً دقيقةً دون أن يشعر . عليك أن تعرفَ كلّ ما يفعلُ وبمن يتّصلُ وماذا يقول .. لا تفوتنّكَ حركةٌ من حركاته وإلا كنتَ أنتَ المسؤول ! » .

٢٦ . القائد الاعلى

كان إسحق اليوركيّ في طريقه إلى قيادة فرسانِ الكنيسة في تمبلستو ، راكباً على بغلة أعطاه إياها لوكسلي ، ومُغِذّاً السيرَ بقَدْرِ ما تسمحُ له حالتُهُ الجسديةُ والنفسية .
ولما وصل أمام البناء الحصين . كان لوكاس دي بومانوار ، الرئيسُ الأعلى لفرسان الكنيسة ، يتمشّى مع أحد الفرسان في حديقة بين التحصينات . وبينما هو كذلك جاءَهُ أحدُ الخدمِ يخبرُهُ بأنّ على الباب يهودياً يطلب مقابلةَ الأخ بريان دي بواجيلبر . قال القائد :

— « لقد أحسنتَ صُنعاً بإطْلاعي على ذلك .. إننا نريدُ أن نعرفَ كلّ ما يتعلّق ببواجيلبر ! أُدعُ اليهوديَّ إلى هنا ، يا داميان ! »

ولما جاء اليهوديّ ركعَ أمام السيد الكبير ، فسألهُ هذا عن غرضه ، فقال :

— « إنني مكلفٌ من قِبَلِ رئيسِ دير جورفولكس ، ويمر ، بإيصال خطابٍ منهُ إلى هذا الفارس المِقْدام ! » .

وطلب السيدُ الأكبر ، الذي كان يخوّلُهُ قانونُ الجماعة أن يَطّلعَ على رسائل الفرسان حتّى ولو كانت من آبائهم ، طلبَ منه أن يُعطِيَهُ الخطاب . فلما فضّهُ وجد أن رئيسَ الدير « ويمر » يخبر بواجيلبر بأنــه في أسر الذين تغلبوا على جبهة الثور ويقول : « .. .ولقد عرفتُ منهم بأنك هربتَ وفي صحبتكَ تلك اليهوديةُ الحسناء التي فتنتك عيناها الجميلتان . كنْ على حذر فإننا نعرف أن رئيسَكَ الأعلى وصلَ من نورمانديا ليضعَ حداً للحياة المرحة التي تحياها . ثم إن والدَ اليهودية الجميلة ، اسحق اليوركيّ ، مستعدّ لان يدفع إليك فديةً لها تمكّنُكَ من الحصول على خمسين بنتاً يضارعْنَها في الجمال ... »

ولما انتهى سأل الفارسَ الذي معه :

— « ما رأيُكَ يا كونراد ؟ هل يستحق هــذا الديراني غيرَ أن يكون مقرّهُ في كهف لقُطّاع الطرق ؟ .. لا بد أن ريبيكا اليوركيةَ هذه تلميذةٌ لمريام الشهيرة ! .. قل ، أيها اليهوديّ ، هل تمارس ابنتُكَ فنّ شفاء المرضى ؟ »

— « أجل ! ولقد شفتْ أناساً كثيرين ! »

— « ألا تستخدمُ في هذه العمليات الرّقى والسحر ؟ »

— « كلا ، يا سيدي ! بل هي تستخدمُ مَرْهماً عجيباً . »

— « وعمّن أخذتْ سرّ صنعه ؟ »

— « عن امرأة من قومنا تدعى ميريام ! » .

— « ميريام ، الساحرة البغيض التي أحرقت وهي حيّة ؟ ليُكتَبْ لي نفسُ المصير إن لم أصنعْ بابنتك ، التي تجرّ جنودَ المسيح إلى الهلاك ، ما صُنع من قبلُ بميريام ! .. داميان ، أطرُدْ هذا اليهوديّ ، واقتلْهُ إن عادَ إلى هذا المكان . سوف نعاملُ ابنتَهُ كما تستحقّ . » .

٢٧ . تهمة السحر

ثم إنّ بومانوار السيد الأكبر استدعى معلّم الرهبانِ الجنود .. ألبير دي مالفوازان . وألبير هذا هو شقيق فيليب دي مالفوازان والصديق الحميم لبريان دي بواجيلبر . لقد كان أكثر عناصر الجماعة فساداً ، ومع ذلك فقد استطاع بدهائه أن يتكتّمَ على الفساد الذي كان مُسْتَشْرِياً في مقرّ القيادة . وقد استمعَ إلى التأنيب القاسي ، الذي صدر عن السيد الأكبر ، بما يُوحي بأنّهُ متأثّرٌ جدّ التأثّر مما حدثَ وسارعَ إلى تنظيمِ بعضِ الأشياء ، حتى خيّلَ لبومانوار أن هذا الرجلَ إنْ كان قد وقع في خطيئة فانما يكونُ ذلك عن ضَعْفٍ لا عن تصميمٍ . ولكنّ وجودَ اليهوديةِ في المقرّ أعادَ الشكوكَ إلى نفس بومانوار حيالَ المعلّم . فلما جاءه تلقّاهُ بوجهٍ عابسٍ وكلّمهُ بشدّة . قال :

— « في هذا البيت المكرّس لله توجدُ يهوديةٌ أتى بها أحد إخواننا بالتواطؤ معك ، أيها السيّدُ المعلم ! » .

فظل مالفوازان صامتاً مضطرباً . فاستطردَ بومانوار يقول :

— « ما لكَ لا تجيب ؟ .. أظنّ أنك تعرفُ نظامَ جماعتنا .. لقد قبلتَ بأن يُقْدِمَ أحدُ الإخوان على تلطيخ هذا المكان بإدخال ساحرةٍ يهودية إليه ! »

— « ساحرة يهودية ؟ ! »

— « نعم ! وهل تُنكر أن ريبيكا ، بنتَ المرابي المجرمِ اسحق اليوركيّ ، وتلميذةَ الساحرة ميريام ، موجودةٌ في هذا المقرّ ؟ »

— « لقد اكتشفت بحكمتك ، يا سيدنا المعظّم ، أنها ساحرة ، وهذا ما يفسّرُ الجنون الغريب الذي استولى على أخينا المقدام ! » .

— « بالتأكيد ! لعلّ الأخَ بواجيلبر يستحقّ العطفَ والشفقةَ أكثر مما يستحقّ الملامة . وأرجو أن تؤدّيَ صلواتُنا ونصائحُنا إلى تسديد خُطاه .. أما تلك الساحرةُ اللعينة ، فيجبُ أن تموت .. لسوف نحاكمها ونُدينها .. مُرْ بإعدادِ القاعة الكبرى من أجل المحاكمة ! » .

وانسحبَ مالفوازان وراح يفتّشُ عن بواجيلبر ، الذي وجدَهُ وهو في حالة شديدة من الغضب ، لأن ريبيكا ما زالت ترفضُ أن يَقْرَبَها .

— « الخائنة ! إنها تحتقرُ الذي أنقذَ حياتها ، معرّضاً نفسَهُ للهلاك ! لكَمْ أنا نادمٌ لأنني لم أتركْها طُعْمةً للنيران ! » .

ذلك ما ابتدرَ به بواجيلبير صديقَهُ مالفوازان ، الذي أجابه :

— « أظنّ أنّ الشيطانَ مُسْتَوْلٍ على كلّ منكما ! .. لكَمْ نصَحْتُكَ بالحذر ولم تَنْتَصِحْ ! لماذا تُصرّ على الجرْيِ وراءَ هذهِ اليَهوديّة .. لا ريب في أن لوكاس دي بومانوار لديه ملءُ الحقّ بأنها استخدمَتْ معكَ السحر ! » .

— « لوكاس دي بومانوار ؟ . هل يَعلمُ بوجود ريبيكا ؟ »

— « لقد بذلتُ ما في وُسْعي لأخفي أمركَ ، ولكنه علمَ به ، ولا أدري كيف علم .. على أي حال رتبتُ المسألة وانقذتك شريطة أن تتخلى عن ريبيكا ! إنكَ محلّ عطف لأنك كنتَ ضحيّةَ السحر .. أما هي فستعامل على أساس أنها ساحرة ! » .

فصاح بواجيلبير :

— « وحقّ السماء لن يحْدُثَ هذا ! » .

راحَ مالفوازان يحاولُ أن يُقْنِعَ بواجيلبير بالتخلّي عن اليهودية ، لأن إرادةَ السيد الأعظم فوقَ كلّ ارادة ،

ولا يستطيعُ لا بواجيلبير ولا غيرُهُ أن يعارضوه. وذكّرَهُ بأن مصيرَهُ الطردُ والتشرّدُ إن هو تمسّك باليهودية التي آمنَ القائدُ العامُ بأنها ساحرةٌ ، ولذلك سوف يحرقُها ، وما المحاكمةُ التي سيُجريها لها سوى محاكمة صُوريّة ، لأنّ صيغةَ الحكم جاهزةٌ منذ الآن . واستغلّ ما يعرِفُهُ من طموح لدي بريان ، فقال له إن السيّد الأعظم يتمنى ، بينَهُ وبين نفسه ، أن يظلّ هو ، بواجيلبير ، سادراً في غيّه ، متشبّثاً باليهودية ، ليستحقّ الطرد ، ذلك أنه يخشاه ويخافُ أن يأخذَ منه عصا القيادة ، بوصفِهِ أقوى مرشّحٍ بين الجماعة .

واقتنع بواجيلبير بالأسباب التي قدّمها صديقُهُ مالفوازان ، ولكنّهُ في الواقع كانَ شديدَ التعلّق بريبيكا ، إذ ما إنْ تركَهُ مالفوازان ، ليُبْعِد قاعة المحاكمة ، حتى همس : « ريبيكا ، كم ستكلفينني ! لمَ لا أستطيعُ أن أتخلى عنكِ كما ينصحني هذا المرائي الهادىء الأعصاب ! ؟. سأحاولُ أن أنقذَكِ مرةً أخرى ، ولكن حذار أن تَصُدّيني ، فإن انتقامي لن يكونَ أقلّ عنفاً من حبي ! ».

وعقِدت المحكمة ، فجلس على المنصّة ، في صدْرِ القاعة ، القائدُ الأعلى بومانوار وهو يرتدي ملابسَ بيضاء ويحملُ بيدِهِ عصاهُ . وجلسَ تحتَهُ كاهنان لكتابةِ المحْضر . كما جلسَ عن جانبيْهِ أربعةٌ من

المعلّمين على مقاعدَ أصغرَ من مقعدِ الرئيس ومتخلّفةً عنه . أما فرسانُ الجماعة فقد جلسوا على مقاعدَ خشبيةٍ في القاعةِ التي ازدحمَتْ بالناسِ وقد جاءوا ، بداعي الفضول ، ليَروْا السيّدَ الأعلى والساحرةَ اليهودية .

وجيء بريبيكا لتَمْثُلَ أمامَ المحكمة . وبينما كانتْ داخلةً إلى القاعةِ دسّ شخصٌ في يدها رُقْعةً ، فأخذَتْها وأطبقَتْ يدَها عليها دونَ شعور ، ثم تلا الرئيسُ الاتّهام الموجّهَ إليها ، وهو مزاولةُ السحر ، ودخولُ قيادة فرسانِ الكنيسة ، ذلك المكانِ المقدّس ، بقصد الإفساد ، فقد أفسدَتْ أبرزَ فارسٍ من فرسان الكنيسة ، هو بريان دي بواجيلبير ، المرشّح للقيادة العامة ، وحمَلَتْهُ بسِحْرِها وبشَعْوَذَتها على أن يتنكّرَ للعهْد الذي قطعَهُ على نفسِه ، وأن يُدخلَها إلى مقرّ القيادة ويَبْسُطَ عليها حمايته .

ثم طلب أن يتقدّمَ إلى الشهادة من يُريد . فشهدَ عددٌ من الحضور ، ورَوَوْا كيف أدخلَها بريان إلى مقرّ القيادة ، ثم تقدّمَ رجلٌ يتوكأ على عُكّازيْن . فقال إنه نجار ، وإنه كان يعملُ ذاتَ يومٍ عند اسحق اليوركي ، فأصيب بالشلل . وقد عالجتْهُ ريبيكا ، واستطاعتْ أن تعيدَ الحركةَ إلى أعضائه ، حتى استطاعَ أن يسيرَ مستعيناً بعُكّازيْن . وقال إنها استخدمَتْ في ذلك مَرْهَماً

عجيباً . فطلب إليه الرئيسُ أن يُريَهُ المَرْهَمَ فناولَهُ عُلْبَةً كُتِبَتْ عليها بعضُ الكلماتِ العِبْرِيّة . فسألَ الرئيسُ إن كانَ يوجَدُ في القاعة طبيبٌ يستطيعُ أن يعرِف من أيّ موادّ صُنِعَ هذا المرهم . فتقدّمَ إليه كاهنٌ وحلاّقٌ ، وراحا يَشُمّان تلك المادّةَ ، وأطالا الشمّ ، فلم يُوَفّقا إلى معرفةِ الموادّ التي صُنِعَ منها المَرْهم ، فاتّفقَتْ كلمتُهما على أنه لا يمكنُ أن يكونَ صادراً إلا عن مَعملِ الشيطان . وكان هذا كافياً لإصدار الحكم الذي كان في ذهن الرئيس . وقبل أن يلفظَهُ سألَ ريبيكا إن كان لديها ما تقولهُ قبل النّطق بالحكم . فقالت بصوتٍ مضطرب :

— « مهما حاولتُ فلن أستطيعَ أن أعطفَ قلوبكم عليّ ، ولكنني أتوجّهُ إليك أنت ، يا بريان دي بواجيلبير : ألا تريدُ أن تَدْحَضَ الاتهامات المُوَجّهةَ إليّ ؟ »

فاتجهَتْ جميعُ الأنظارِ إلى بواجيلبير الذي ظلّ صامتاً . فقال بومانوار :

— « أجبْها ، أيها الأخ ! » .

كانت العاصفةُ ، التي تجتاحُ قلبَ الكاهن الجنديّ ، تقلبُ سحنَتَهُ بصورةٍ مروّعة . وأخيراً استطاع أن يلفُظَ بصوتٍ أجشّ وهو ينظر إلى ريبيكا :

— « الرّقّ ! الرّقّ (الرقعة من الجلد) ! »

وصاح الرئيس بلهجة المنتصر :

— « أترَوْن ! ! إن ضحيةَ هذه الساحرة لم يستطعْ أن يلفُظَ غيرَ اسمِ الرّقّ الذي نُقشَتْ عليه الرموزُ الشيطانيةُ التي سَحَرَتْه بها ! »

وعندما قال بواجيلبر لريبيكا كلمة « الرّقّ » . تذكّرَتِ الرّقعةَ التي دُسّتْ في يدها ، وهي داخلةٌ إلى المحكمة . فاستغلّت الفوضى التي حدثت في تلك اللحظة لتُلقي نظرةً خاطفةً على الرّقعة ، فقرأت عليها : « أطلبي بطلاً مدافعاً ! »

فلما هدأ الضجيج ، سألها المعلّمُ الأكبرُ إن كانت تريدُ أن تضيفَ شيئاً آخر ؟ فأجابت :

— « أجل ! .. إن قوانينَكم تقدّمُ لي فرصةً للنجاة : إنني أطالب بالمبارزة القضائية ، وأطلبُ مُدافعاً عني ! »

— « ومنذ الذي يقبَلُ أن يدافعَ عن ساحرة يهودية ؟ ! »

— « عسى الله أن يقيّضَ لي مدافعاً ! . . وهذا هو عُربوني ! »

ثم خلَعَتْ أحدَ قُفّازَيْها المطرّزَيْن ورمَتْ به على المنضدةِ أمام الرئيس .

* * *

٢٨ . البحث عن بطل مدافع

ووافق الرئيسُ على طلب ريبيكا ثم التفتَ نحو فرسانِ الكنيسةِ وسألهم :

— « من يريدُ أن يدافعَ عن قضيتنا ؟ »

فردّ أحدُ القواد قائلاً :

— « إن بريان دي بواجيلبر أعرفُ الجميع بعدالة قضيتنا ! » .

فأمر الرئيس ألبير دي مالفوازان أن يعطيَ عُرْبون المعركة إلى بريان . ثم التفت إلى ريبيكا وقال لها :

— « ريبيكا ! إننا نمنحكِ فُسْحةَ ثلاثة أيام ، اعتباراً من هذا اليوم ، لتعثري على بطلٍ يدافعُ عنكِ ، فإنْ لم تجدي أحداً ، أو وَجَدْتِ مُدافعاً وخسر المعركةَ ، فستموتين على المحرقة ، كما تموتُ الساحرات ! » .

وطلبتْ ريبيكا من الرئيس أن يسمحَ لها بأن تتّصل بأهلها ليجدوا لها من يُدافعُ عنها . فلما أذنَ لها بذلك التفتَتْ إلى الجمْع وسألتْ إن كان بينهُمْ من يقبلُ بأن يحملَ رسالةً إلى أهلها ، فلم يرُدّ عليها سوى النجار ذي العُكّازَيْن . .

وحمل هيغ النجارُ الرسالةَ ومضى متوجّهاً إلى يورك . ولكنه لم يَسِرْ سوى مسافةٍ قصيرةٍ حتى رأى والدَها ،

ومعه الحاخام ، وهما يحومان حول تمبلستو ، التي قيل لاسحق إنّ ابنتَهُ تحاكَمُ فيها .

وقد رجت ربيكا من والدها أن يتصل بويلفرد آيفنهو ليدافعَ عنها ، فإذا كانت حالتُهُ الصحيّة لا تسمحُ له بارتداءِ الدّرع ، فليجدْ لها فارساً شديداً يستطيع أن ينقذَها ، وإلا فإنها هالكة . وقالت له إن قُدّرَ عليها أن تموتَ فليغادرْ هو انكلترا ويلتجىء إلى قُرْطُبَةَ ليعيش في حماية الملك العربي أبي عبد الله .

لما رأى رفيقُ اسحقَ حالتَهُ السيّئة قال له :

— « لا تفقدُ الأمل ، وامضِ في الحال للبحث عن ويلفرد آيفنهو هذا ، فقد يوجّهُكَ أو يقدّم لك العونَ ، لأنّهُ مقربٌ إلى الملك ريتشرد قلب الأسد ، الذي يشاع إنه عاد إلى انكلترا ، وقد يحملُ الملكَ على منع هذه المحاكمة .. هيّا لا تُضِع الوقت ! أما أنا فسأذهب إلى يورك ، حيث يتجمّعُ كثيرٌ من المقاتلين ، لأجِدَ واحداً يقبَلُ الدفاعَ عن ابنتك لقاء مبلغ من المال ! » .

٢٩ . البوق السحري

عندما غادرَ الفارسُ الأسودُ الخارجينَ على القانون جعلَ وِجْهَتَهُ ديرَ القديس بوتولف ، الذي أخذ « ومبا » و « غورث » آيفنهو اليه . وقد جرى حديثٌ

طويلٌ وجدّيّ بين الفارسين ورئيس ذلك الدير ، وهو أهم الأديرة .

وفي اليوم التالي ترك الفارسُ الأسود الديرَ متوجّهاً إلى روذر وود لكي يسعى إلى مصالحة سدريك وابنه آيفنهو . وقد أراد هذا مرافقته إلا أن الفارسَ الأسْوَدَ رفضَ ، على أساس أن آيفنهو لا يزالُ محتاجاً إلى الراحة .

ولكنه اصطحبَ معه « ومبا » ، طالباً من ويلفرد أن ينتظره إلى اليوم التالي ولا يتزحزح من مكانه .

وعندما عاد آيفنهو إلى الدير ، بعد وداعه للفارس الأسْود ، بدأت تساورُهُ الهواجسُ عليه ، ولم يَعُدْ يستطيع البقاء . فأخبر بذلك رئيسَ الدير الذي صُعِقَ لهذا النبأ ، ولكنّه أذعَنَ آخرَ الأمرِ وأعطاه فرسَهُ الخاصّ ليركَبَهُ .

في هذا الوقت كان الفارسُ الأسودُ و « ومبا » يسيرانِ عبرَ الغابة وهما يغنّيانِ . وقال « ومبا » :

— « ماذا تفعل ، أيّها السيّدُ الفارس ، لو صادَفْنا في هذه الغابات نفراً من رجال مالفوازان ؟ »

— « أسمّرُهُمْ في الأرض برمحي هذا ! »

— « وإذا كانوا كثيري العدد ؟ .. ألا تنفخ في بوق لوكسلي ؟ »

— « أتريدُني أن أطلب المساعدةَ لمواجهة مثل هؤلاء الأوباش ؟ »

— « دعني ، أيها السيّدُ الفارسُ ، أرى هذا البوقَ الذي يتفرّدُ بمثل هذه المزيّةِ العجيبة ! »

فنزعَ الفارسُ الحمالةَ المعلّقَ بها البوقُ وناولَهُ إياها . فوضعها « ومبا » في عنُقه وراحَ يصفر . قال الفارس :

— « ماذا تعني ، أيها الخبيث ؟ .. هات البوق ؟ ! »

فابتعد عنه « ومبا » وقال :

— « عندما يسافر الجنونُ في صحبة العقل ، فالجنون هو الذي يحمل البوق ! يكفيك أنتَ أن تعرف أنه في مأمن ! .. إياك أن تستخدمَ العنف وإلا تركَ الجنونُ العقلَ في هذه الغابة ، وليعرفِ العقلُ بعد ذلك كيف يخرجُ منها ! »

فضحك الفارس الأسْوَدُ وسمح له بأن يحتفظ بالبوق .

ولم تمضِ لحظة حتى صاح « ومبا » :

— « ما هذا ؟ .. ألا يكوّن خوذة عالية ؟ »

— « أعتقد أنك على حق ! »

وأرخى الفارسُ طرَفَ خوذته فغطّى وجهَه .. والواقع أنه غطّاه في الوقت المناسب ، فقد انطلقتْ عليه ثلاثةُ سهام ، ولولا أنه غطى وجهه لاخترقَ أحدُ السهام دماغه . فانطلق نحو الجزء المقطوعِ الأشجارِ من الغابة فوجد ستة أو سبعة من الرجال المسلحين ، الذين هجموا عليه ورماهم إلى الأمام ، فتحطمت ثلاثةُ رماح على درعه . فصاح وهو ينتصب على رِكابيْه :

— « ما هذا أيها السادة ؟ »

فتصايح الجميعُ وهم يحيطون به من كل جانب :

— « الموت للطاغية ! »

فحمل عليهم وهو يصرخ :

— « يا قديس إدوار ! يا قديس جورج ! إذن يوجد هنا خونَة ؟ »

وكان كلّما صرخ صرخةً رمى رجلاً . فتراجع الرجال ، ولم يعودوا يجرؤون على الاقتراب منه ، لولا أن فارساً يرتدي درعاً زرقاء هجم عليه رافعاً رمحَه ، وضربَ جواده الذي وقعَ مصاباً بجرحٍ مُميت . فصاح الفارسُ الأسْوَدُ الذي وقع مع الجواد :

— « هذه الضربةُ ضربةُ جبان ! »

في هذه اللحظة نفَخ « ومبا » في البوق ثلاثاً . فتراجع القَتَلَة ، هنالك ساعد « ومبا » الفارسَ الأسْوَدَ على النهوض .

وصاح الفارسُ الأزرق في الرجال يستحثهم :

— « تبّاً لكم ، أيها الجبناء ، إن كان صوتُ النفير يجعلكم تُولّونَ الأدبار ! »

فتشجّعَ الرجالُ وعادوا إلى مهاجمة الفارس الأسْود الذي اضطُرّ إلى حماية ظهره بإحدى الأشجار . ولما رآه الفارسُ الأزرق على هذه الحال انطلق نحوه ورمحُهُ

موجهٌ إلى أمام كي يسمّرَهُ في الشجرة . ولكن « ومبا »
فوّتَ عليه الفرصةَ ، إذ قطعَ قوائمَ الفرسِ بضربةِ
سيف ، فتدحرج الجوادُ وكذلك الفارس . إلا أن وَضْعَ
الفارسِ الأسْود أصبح حرِجاً . صحيح أنه كان يقاتلُ
ببسالة منقطعة النظير ، ولكنّ المهاجمين ، نظراً لكثْرةِ
عدَدهم ، لن يلبثوا أن يتغلبوا عليه . وفجأة أصيب أخطرُ
المهاجمين بسهم ، وانقضّ من بين الأشجار جماعةٌ
من المقاتلين الانكليز ، على رأسهم لوكسلي والناسكُ
المرح . ولم تَمُرّ لحظاتٌ حتى كان جميعُ المعتدين مبعثرين
على الأرض بين قتيلٍ وجريح . قال الفارس الأسْوَدُ لمنقذيه :

— « قبل أن أشكركم أريدُ أن أعرفَ شخصيةَ
أولئك الذين هاجموني دون أن أتعرّض لهم ! .. « ومبا »
إرفع مُقدّم خُوْذَةِ هذا الفارسِ الذي يبدو أنه هو
قائد الأشرار ! » .

ولما ظهر وجهُ الجريح صاح الفارسُ الأسْوَدُ وقد
استولى عليه الدهش :

— « ولدمار فيتزورس ؟ ! من الذي دفعكَ إلى
القيام بهذا العمل الإجرامي ؟ »

— « إنه ابنُ أبيك ! .. على هذا النحو أراد أن يعاقبك
على عصيانك أوامرَ أبيك ! » .

فالتمعت عينا ريتشرد كمَــن أصيب في صميم

كرامته ، قال :

— « ألا تطلب العفو ؟ »

— « وما فائدة ذلك لمن كان بين مخالب الأسد ؟ ! »

— « الأسد يحتقرُ الجثث ! إنني أمنحك العفوَ شريطةَ
أن تخفيَ عارَك في قصرك بنورمانديا ، وألا تنطقَ بكلمة
تنمّ عن أن « جان دانجو » كان شريكاً لك في هذه
المؤامرة ! .. لوكسلي ، أعطِهِ فرساً ودَعْهُ يرحل ! »

قال لوكسلي :

« لولا أنني أسمعُ صوتاً من واجبي أن أطيعَهُ لأطلقْتُ
على هذا النذْلِ سهماً يجنّبُهُ عناء السفر ! »

— « إن لك قلباً إنكليزياً حقيقياً ، يا لوكسلي !
فأنتَ لم تخطىء في قولك إن عليك أن تطيعني : نعم
إني أنا ريتشرد قلب الأسد ! » .

وما إن تفوّه ريتشرد بهذه الكلمات حتى ركعَ جميعُ
المقاتلين الانكليز وأقسموا يمينَ الولاء ، وطلبوا الصفْحَ
عن عِصْيانهم ، وقال ريتشرد بعطفٍ ظاهر :

— « إنهضوا ، أيها الأصدقاء ! إن أخطاءَكُمْ
قد مَحتْها معونتُكم لرعاياي عند جدرانِ توركيلستون ،
والمساعدةُ التي قدمتموها إلى مَلِكِكم في ذلك اليوم !
كونوا في المستقبل رعايا صالحين محترِمين للقوانين ! ..
أما أنت يا لوكسلي ، فكنْ على ثقةٍ من أن الأعمال التي

صدرَتْ عنك في تلك الفترة المضطربة ، أثناءَ غيابي ، لن تعاقَبَ عليها.. وأنت يا ومبا المخلص.. إن خدماتِكَ لن تنسى ! »

وكان الراهبُ المرِحُ في تلك اللحظة راكعاً وهوَ يحاول عبثاً أن يُسْبِغَ على وجهِهِ مظهرَ التوبة . فالتفتَ نحوَهُ الملكُ وقال :

— « ما بك ، أيها الناسكُ المجنون ؟ أتخافُ أن يعلَمَ رئيسُ أبرشيّتك كيف تخدم القديسَ دانستن والعذراء ؟ إن ريتشرد لا يُذيع الأسرارَ التي يُباح بها حول الزجاجة ! لهذا أسمحُ للراهب المسكين بالصيد في غاباتي بورنكليف ، بواقع ثلاثة أيائلَ في الموسم الواحد .. ومع هذا إذا لم تَقْتُلْ ثلاثينَ أيّلاً بهذا الأمر فلستُ فارساً مسيحياً ولا ملكاً لإنكلترا ! »

في هذه اللحظة ظهر رجلان ، لم يكونا سوى آيفنهو وغورث ، ولما رأى آيفنهو الملكَ ملطّخاً بالدم ، ورأى الجُثَثَ على الأرض ، استولى عليه القلق . قال الملك :

— « ويلفرد ، إن ريتشرد كشفَ عن هويته أمام هؤلاء الانكليز الشجعان ، الذين ابتعدت بهم شجاعتُهُم حيناً عن الجادّة ! »

قال لوكسلي :

— « إن تأكيداتي لن تُضيفَ شيئاً إلى ما قدّمَهُ

مليكُنا ، ولكنِ اسمَحْ لي يا سير ويلفرد آيفنهو أن أقولَ إننا أخلصُ الرعايا ! » .

قال آيفنهو :

— « ليس لديّ أيّ شك في هذا ! .. ولكنْ .. ما هذهِ الجُثَثُ المُبَعْثَرة ؟ »

قال الملك :

— « لقد وقعَتْ خيانة ! ولكنْ بفضل هؤلاء البواسلِ لقيَتِ الخيانةُ الجزاءَ العادل ! .. والآن ، لمَ عصيتَ أمرَنا وغادرتَ اليوم دير بوتولف ؟ »

— « إن جراحي قد شُفيت ! .. ولكنْ لمَ يعرّضُ الملكُ حياتَهُ الغالية للخطر ؟ »

— إن ريتشرد لا يفكّرُ إلا في مَجْدِ بلاده ! .. لقد انتظرتُ حتى الآن لأكشفَ عن نفسي أمامَ أصدقائي وأمامَ النبلاء المخلصين لي ، وذلك حتى أتيحَ لهُمُ الفرصةَ لخنقِ التمرّد في المهد . إن استوتفيل وبوهن لن يكونا في يورك قبل أربعٍ وعشرينَ ساعةً . وسيصلُ سالزبري من الجنوب ، وملتون يسلّح الرجالَ في الشمال ، وأما المستشار وارديك فهو في بوشان ، وسيستولي على لندن ، ولو أنني كشفتُ عن شخصيّتي قبل الآن لما خلّصني من الأخطارِ شيء . »

بعد هذا سار الملك ريتشرد وآيفنهو ووراءَهما غورث

وومبا ، في حين كان لوكسلي ورجاله يسيرون على بعض المسافة للمحافظة على الملك .

وقبل أن يصلوا إلى قصر روذروود . لاقاهم يهوديّ يبدو عليه الإجهاد . أشار اليهوديّ إلى آيفنهو ليكلّمه على انفراد ، وأسرّ كلاماً في أذنه ، ما إن سمعه آيفنهو حتى همزَ جواده وانطلق في اتجاه معين . هذا الرحيل المفاجيء حملَ الملكَ على أن ينطلقَ في نفس الاتجاه .

* * *

٣٠ . المنقذ

حولَ الساحة التي كانت معدّةً لتنفيذ الحكمِ بريبيكا كان يتجمّعُ جمهورٌ غفير . وفي طرف من الساحة الكبيرة وُضِعَ عرشٌ للمعلّم الأكبر ، ورُتّبَتْ مقاعدُ للقيادة والفرسان ورُفِعَ علَمٌ للجماعة . أما في الطّرف المقابل فقد أقيمتْ مَحرْقَةٌ وقفَ حولها أربعةٌ من العبيد .

وقُرِعَ الجرسُ الكبيرُ ، فانخفضَ الجسر المتحرّك وخرج موكبُ المعلم الأكبر تتقدّمه الزهور . وكان القائدُ الأعلى لفرسان الكنيسة يسير وأمامه القادةُ والفرسان ووراءه بريان دي بواجيلبير الذي كان يَتْبَعُهُ كونراد مونفيشيه

وألبير دي مالفوازان ، وهما شاهداه . وكان وجهُ بواجيلبير تكسوه صفرةُ الموت مما كان يعصِف في داخل الفارس ، الشاكي السّلاح ، من مشاعرَ وأحاسيس . وفي المؤخّرة كان ثُلّةٌ من الحَرَس ، المسلّحين بالحراب ، يقودون ريبيكا . وقد أبدِلَت بملابسها ثوباً أبيضَ من الكتان الرديء . وقادها الحرسُ إلى مقعد بجانب المَحرْقة . فما إن رأتْ هذه الاستعدادات الرهيبةَ حتى راح جسَدُها ينتفضُ بينما كانت تتلو بعضَ الصلواتِ بصوتٍ خافت .

وتقدّم بواجيلبير أمامَ القائدِ الأعلى ، فوُضِع قُفّازُ اليهودية عند قدَمَيْه . هنالك أعلن الحَكَمُ أن بريان دي بواجيلبير مستعدٌ ، من أجل الدفاع عن قضيةِ الجماعة المقدسة ، لمبارزةِ أيّ فارسٍ نبيلٍ يتقدّم للدفاع عن المتهمة .

وبالرّغم من الجهود ، التي بذَلَها مونفيشيو مالفوازان ، انطلق بواجيلبير نحو المَحرْقة ، قال :

— « ريبيكا ، هل تسمعيني ؟ »

فانتفضتِ المسكينةُ وقالتْ :

— « ليس بيننا أيّ كلامٍ . أيها الرجلُ المتحجّرَ القلب ! »

— إسمعيني ، يا ريبيكا ! .. إن هذه الساحةَ .. هذا المقعدَ .. هذه المظاهرَ المخيفة .. كلّها تبدو لي ضرباً

من الخيال .. إنني لا أستطيعُ أن أتصوّرَ هذا ! .. إن جوادي زامور لا يستطيع أي جواد أن يتبعَهُ .. تعالَيْ ، لن تمضي ساعة حتى نكونَ قد أصبحنا بعيدَيْنِ عن كل خطر.. ولأُطْرَدْ بعدَ ذلك فلَنْ أهتمَّ بشيءٍ ! ».

— « إبتعِدْ عني ، أيُّها الرَّجُل ! » .

وداخلَ القلقُ مالفوازان فاقتربَ منه وقال :

« هل اعترفتْ ، أيها الأخ ، أو أنها ما زالت تُصِرّ على الإنكار ؟ »

فأجابه بواجيلبير بمرارة :

— « إنها ما زالت مُصِرّة ! » .

ومضت ساعتان قبل أن يتقدّمَ بطلٌ يدافع عن ريبيكا . وقد بدأ القادة ، بتأثير من مالفوازان ، يتململونَ ويُطالبــون بنقض التعهّد وتنفيذ الحكم . ولكن .. ها هو فارس يندفع بجواده داخلَ الساحة ويتوجّهُ نحو المنصّة . وصاح الناس : الفارسُ المدافع ! ولكنْ خاب أملهم بالفارس عندما رأوا جوادَهُ منهوكاً من التعب ، ورآه ، هو ، غيرَ قادرٍ على التماسك فوق الجواد .

قال الفارس للحكَم :

« إنني آتٍ للدفاعِ عن ريبيكا بنت اسحق اليوركي ضد بريان دي بواجيلبير ! »

ولما كان مالفوازان يَشُكّ في أن يكونَ ذلك الرجلُ

فارساً نبيلاً فقد طلبَ اليه أن يرفعَ مقدّمَ خُوذَتِه ويكشفَ عن وجهه . فصاح الفارس :

« إن إسمي أشهرُ من اسمك ، يا مالفوازان ، وأصلي أشرفُ من أصلك ! .. إنني ويلفرد آيفنهو » .

وقال بريان بصوت أجشّ :

— « لن أقابلكَ اليوم .. إشفِ جروحكَ أولاً واركبْ فرساً أفضلَ من هذا ، وعندها أوافقُ على نِزالك لأعاقبك على تحدّياتك ! » .

— « أنسيتَ ، أيّها المغرور ، أن رمحي أسقطكَ مرّتينِ اثنتين ؟ .. أذكُرْ عكّا ، واذكر أشبي ! أذكُرِ التحدّي الذي وجّهْتَهُ إليّ في قصر روذروود ! أقسمُ بالذخرة المقدّسة ، التي وضعْتَها كعربون للاستجابة إلى تحدّيك ، إن لم تنازلْني فوراً ، فضحْتُ جُبْنَك في بلاطاتِ أوروبا جميعاً وقيادات جماعتك في مختلِفِ البقاع ! »

فصرخ بواجيلبير كالمجنون :

— « أيها الكلبُ السكسوني ! خُذْ رُمْحَك واستعدّ للموت ! »

وأرخى كلٌّ من الفارسَيْن مقدّم خُوذَتِه ، ووقفَ في المكان المحدّد له . وقبل أن يرخي بواجيلبير خوذته ، لاحظ تابعهُ أن وجهَهُ ، الذي ظلّ مُصْفرّاً طوال الوقت ، احتقَنَ فجأة واكتسى بحمرةٍ غريبة . هنالك

أنهى المعلم الأكبر عُربونَ المعركة في وسط الساحة ، وأعطى إشارةَ البدء . فتعالى صوتُ الأبواق ، وانطلق الفارسان كلٌّ في اتجاهِ الآخرِ ، ورمحُهُ إلى أمام . ولم يَصْمُدْ فَرَسُ آيفنهو المنهوك ، ولا صاحبُهُ الذي لا يقلّ عنه تعباً ، لصدمةِ رمح بريان ، كما كان الكلّ ينتظرون . ولكن كم كان دَهَشُ الحضورِ عظيماً عندما انقلب بواجيلبر ، الذي لم يَصْدِمْهُ رمح ويلفرد سوى صدمةٍ بالغة الضعف .

ولكن آيفنهو سُرعانَ ما تخلّص من ركابيه ، وامتشقَ سيفَهُ واستعدّ للمبارزة . غير أن خصمَهُ لم ينهضْ فأقبلَ عليه ووضع قدمَهُ على صدره وسيفَهُ على عنُقه ، وطلب إليه أن يستسلم إذا شاء ألاّ يموت . ولكن بواجيلبر لم يَرُدّ بشيء . فصاح المعلمُ الأكبر :

— « لا تُجهِزْ عليه قبلَ أن يتوب !.. إننا نعترفُ بخسارته ! » .

ونزل القائدُ الأعلى عن عرشه واقتربَ من بواجيلبر ، فرفعَ مقدّمَ الخُوذةِ عن وجهه .. كانت عيناه مغمضتَيْن ، ثم انفتحتا وظلّتا كذلك جامدتَيْن . وكان وجهُهُ محتقناً بشكلٍ رهيب : مات بواجيلبر ، ولكنه لم يَمُتْ برمح آيفنهو ، بل مات ضحيةً للشهوات العاصفة في داخله ! قال المعلمُ الأكبر وهو يرفع عينيه نحو السماء :

« إنها العدالةُ الإلهية ، لتكن مشيئتك يا ربّ ! » .

٣١. عودة قلب الاسد وعرس آيفنهو

بعد أن زالت صدمةُ المفاجأة عاد آيفنهو ليسألَ المعلمَ الأكبر إن كانت تصرفاتُهُ مطابقةً للقواعد المرعيّة ، فأجاب :

— « نعم ! وأنا أعلن براءةَ الفتاة ، وهي تستطيع أن تكونَ حرةً من هذه اللحظة . ثم إن جثمان المغلوب وأسلحته مِلكٌ للغالب . »

— « لستُ راغباً في أيٍّ منهما !.. ولكنْ ليُدفَنْ دون احتفالٍ شأنَ من يُقتلونَ في مصارعة غير عادلة ! أما هذه الفتاة .... »

وقطع كلامَهُ وصولُ مجموعةٍ كبيرةٍ من الخيالة وعلى رأسها الملك ريتشرد ، وصاح المَلك :

— « لقد وصلتُ متأخراً .. فأنا الذي كنت أريد معاقبةَ بواجيلبر .. ماذا كنت تظن يا ويلفرد ، وأنت تنطلق في هذه المغامرة ، بينما جراحُكَ لم تندملْ إلا من عهد قريب ؟ ! » .

— « السماء هي التي اقتصّتْ من هذا الرجل المتغطرس ! » .

قال ريتشرد :

« لقد كان فارساً مقداماً ! .. ولكن لنُسرع .. بُوْهُن ، قم بواجبك ! »

فخرج فارس من الصف ووضع يده على كتف ألبير دي مالفوازان وقال :

— « إنني ألقي القبض عليك بالخيانة العظمى ! » .

فصاح بومانوار الذي ظل صامتاً حتى تلك اللحظة تحت تأثير المفاجأة :

— « من الذي يتجرّأ على وقف قائد من قواد الهيكل في مقرّ قيادته وبحضور المعلم الأكبر ؟ ! » .

— أنا ، هنري بوهن ، كونت أسكس ، القائد العام لجيش انكلترا ! » .

وأكمل الملك وهو يرفع عن وجهه مقدّم خوذته :

« ... وبأمر ريتشرد قلب الأسد ، الحاضر هنا ! .. وأنت يا ألبير مالفوازان ، استعدّ للموت ، أنت وأخوك ، قبل نهاية هذا الأسبوع ! » .

وصاح المعلم الأكبر :

« سأقاوم ! » .

— لن تستطيعَ ذلك ، أيها الهيكليّ المتكبر ! .. أنظر : لقد حلّ علَمُ انكلترا الملكيّ محلّ راية جماعتك على كل أبراج تمباستو ! .. كن حذراً يا بومانوار ، فلن تجديكَ أيّ مقاومة ! إنسحبْ إلى مقرٍ آخرَ لا يكونُ

بؤرة للخيانة ، أو ابقَ هنا بوصفك ضيفاً على الملك ريتشرد . »

— « أأكون ضيفاً وحسبُ في المكان الذي كنتُ القائدَ الأعلى فيه ؟ ! لن يكون هذا على الإطلاق ! .. أيها الكهنةُ رتّلوا نشيدَنا ! .. وأنتم يا أيها الفرسانُ والمساعدون وجنودُ الهيكل المقدس ، استعدّوا للسّيْر خلفَ رايتنا ! »

نطق المعلمُ الأكبرُ بهذه الكلمات بعظمة لا تقلّ عن عظمة الملك نفسه . وفي الحال شكّلَ الفرسانُ الذين ازدحموا حولَه ، صفاً من الحراب التي كانت تتناقض مع معاطفهم البيضاء . وأعطِيَت الإشارةُ فانطلقَت الأبواقُ بنغم شرقيّ ، وسار الفرسانُ ببطء ، مظهرين أنهم ينسحبونَ نزولاً على أمر رئيسهم ، لا تحتَ ضغطِ قوّةٍ لا قِبلَ لهُمْ بها .

في وسَطِ الضجّةِ التي تبِعَتْ ذلك الانسحابَ التهديديّ ، كان اسحق اليوركيّ يحتضنُ ابنتَهُ التي لم تكُنْ تصدّقُ أنها نجَتْ من الموت . قال الأب :

— « تعالي يا بنيّتي نجثو عند قدمي هذا الشاب النبيل ! » .

— « كلا ، يا أبت ! فأنا لا أقوى على ذلك الآن ! .. قد أقول له أكثرَ من الشكر ... لنذهب من هذا المكان » .

— « قد يَظُنّ بنا الظنون ، ويخطرُ له أننا لا نحفظُ الجميل ! » .

— « ألا تراه في صحبة الملك ريتشرد ؟ » .

— « صحيح .. أنتِ على حق ! .. إن الملكَ خارجٌ من السجن ولا بُدَّ أنه محتاجٌ إلى المال ! .. هيا ، لنبتعِدْ عن هذا المكان ! »

وفي الحال مضى بها مسرِعاً نحو منزل الحاخام ناثان بن صموائيل .

وتعلّقت أنظارُ الجماهيرِ بالفارسِ الأسْودِ ، وراحوا يهتفــون :

« عاش الملك ريتشرد قلب الأسد ! لِيَسْقُطِ الهيكليون ! »

وقال آيفنهو وهو يتحدث إلى كونت أسكس :

— « رغمَ هذه الهتافات كان الملكُ من الحذَرِ بحيث لم يأتِ إلا وهو مصحوبٌ بقوة كبيرة ! »

— « أتعتقدُ أنه هو الذي اتخذَ هذا الاحتياط ؟ لقد كنت أسيرُ إلى يورك حيث يوجدُ الأمير جان ، فصادفتُ في طريقي الملكَ منفرداً ، كالفارس المتجول .. وكان متوجّهاً إلى هذا المكان ليضعَ حداً لمغامرة الجنديّ الهيكليّ مع اليهودية.. ولم يقبل بمصاحبتي له إلا مرغماً ! ».

— « وما هي أنباء يورك ؟ هل ينتظرنا المتمردون هناك ؟ »

— « كما ينتظر ثلجُ كانون أشعّةَ تموز ! .. أتدري من الذي أعلن لنا تفرّقهم ؟ .. الأمير حنا بنفسه . »

— « يا لَهُ من خائنٍ وقحٍ لا يرعى عهداً ولا ذِمّة ! ألم يأمُرْ ريتشرد بالقبض عليه ؟ »

— « لقد استقبلَهُ ، وحقّكِ ، كما لو أنهما يلتقيان بعدَ رحلةِ صيد ! ولما لاحظ امتعاضَنا وغيْظَنا ، قال له : إن بعض رجالي غاضبون ، يا أخي ، فاذهَبْ إلى والدتنا وانقلْ لها تحياتي وابقَ بجانبها إلى أن تهدأ الخواطر ! »

فصاح آيفنهو :

— « أهذا كل شيء ؟ .. إن هذا الملك ليشجّعُ الخيانةَ بحلمه العجيب ! »

بعد هذه الأحداث اجتاز موريس دي براسي المضيقَ ودخل في خدمة ملك فرنسا فيليب أوغست . أما فيليب دي مالفوازان وأخوه ألبير فقد أعدِما . وأما ولدمار فيتزورس ، المحرّك الرئيسي للمؤامرة ، فقد نُفِيَ خارج المملكة ، لا أكثر ، في حين أن الأمير حنا ، الذي حيكت المؤامرة من أجله ، لم يتلقَّ حتى ولا كلمة عتبٍ من الملك ريتشرد ، الذي فاق حلمُه الحد المألوف .

وبعد مضيّ فترةٍ من الزمن استُدعي سدريك السكسونيّ إلى بلاط الملك ، الّذي جُعِلَ في يورك . وفي بادىء الأمر أطلق سدريك أصوات الاحتجاج ، ولكنه قبِلَ الدعوةَ في النهاية .

كان من أثر عودة ريتشرد إلى العرش أن تبدّدت أحلام سدريك بأن يتربع سكسوني على عرش انكلترا . ذلك أن السكسونيين لا يستطيعون ، في أي حال من الأحوال

أن يقلبوا ملكاً يمثل شعبية ريتشرد .

ومن ناحية أخرى كان سدريك ، العنيد ، يعارضُ معارضة شديدة زواج آيفنهو من ليدي رُوِينا . غير أن حنانَ ربيبته وشعورَ الأبوة الدفينَ في قلبه ، أضعفا معارضته لهذا القِران شيئاً فشيئاً فوافق عليه . كما أن التقاربَ بينه وبين الملك ريتشرد قد تحقّقَ بفضل الاهتمام والرعاية اللذَيْن كان يُبْديهما لهُ الملك !

وما أعلن سدريك موافقتَهُ على زواج آيفنهو حتى أقيم احتفال فخمٌ لهذا الغرض في كتدرائية يورك . وكان غورث ، الذي ارتدى ملابسَ رائعةً ، يقومُ بخدمة سيّدِهِ ويلفرد . أما « ومبا » فقد ظهر على رأسه طرطورٌ مهرّجٍ مزدان بأجراسٍ فضيّةٍ برّاقة ، هو هدية من سدريكٍ في هذهِ المناسبة . لقد آثر الاثنانِ أن يعيشا إلى جانب ويلفرد الذي قاساه المصاعب .

وقد دُعي إلى حفلة العرس عددٌ كبيرٌ من النورمانديين والسكسونيين ليكونَ هذا الاجتماع فرصةً للتصافي وتوثيق عُرى المودة بين العنصرين المتنافسين . ولقد توثقت هذه الصلاتُ الآن حتى لم يَعُدْ يُشَكّلُ الشعبانِ سوى شعب واحد مترابطٍ متآلف . ولقد عاش سدريك حتى رأى بأمّ عينه هذه الوحدة تتحقّق . غير أن اللغةَ الانكليزيةَ لم تصبح لغة البلاط إلا في عهد إدوارد الثالث .

بعد مضيّ يومين على هذا الزواج السعيد جاءت إلى رُوِينا إحدى وصيفاتِها وأنبأتها بأنّ هناك فتاةً تريد مقابلتها . كانت تلك الفتاة هي ريبيكا بنت إسحق اليوركيّ . لقد جاءت لترجو ليدي آيفنهو بأن تنقل شكرها وامتنانها لويلفرد . وسألتها رُوِينا إن كانت هي أو ويلفرد يستطيعان أن يخدماها في شيء . قالت :

— « لا أطلب سوى أن تُبْلغيه تحيّاتي ، وأنا أغادرُ هذه البلاد ! » .

— « إذن سترحلين من انكلترا ؟ »

— « أجل ، أيتها السيدة النبيلة ! إن لوالدي أخاً ينعم برعايةِ أبي عبد الله ملكِ غرناطة ، سنذهب لنعيشَ بجانبه هناك وننعم بالحرية والهدوء ! .. وقبل أن أرحلَ أرجو منك أن ترفعي هذا النقابَ عن وجهك حتى لا أحرَمَ من رؤية جمالك الذي يتحدّثُ به الناس ! » .

— « إن تقاطيعَ وجهي لا تستحقّ كلّ هذا المديح ، ومعَ ذلك فلن أرفُضَ طلبَكِ ، على أن ترفعي أنت النقابَ بدَوْرِك ! » .

وراحتْ كلّ منهما تتأمّلُ الأخرى . وقالتِ اليهوديةُ وقد ارتعشَ صَوْتُها واغرورقَتْ عيناها بالدمع :

— « أيتُها السيدةُ النبيلة ، إن وجهَكِ لن يغيبَ عن مخيّلتي بعد الآن ! إنه ليضيءُ بالرّقّة والطّهارة . وأحمدُ الله على أنني تركتُ منقذي بين .... »

ولم تستطـعْ أن تكمِـلَ جملتها ، كما لم تستطـعْ أن تُجيبَ على أسئلة رُوِينا عمّا بها ، لأنّ صوتها اختنق ، في حين استولى على رُوِينا الذهول . ومسحت دموعَها وقالت معتذرةً :

— « إنني كلما ذكرت مآسي توركيلستون وتمبلستو أصابتني هذه الحالة ! »

ثم سارعتْ إلى الاستئذان بعد أن قدّمت إلى ليدي رُوِينا عقداً وقرطين من الماس .

وقد حدّثت رُوِينا زَوْجَها بهذا اللقاء الغريب ، فظهر التأثرُ على وجهه .

وعاش آيفنهو وزوجتُهُ حياةً سعيدة . لأن العاطفةَ التي ربطتْ بينهما منذ الحداثة متّنَتْها المصاعبُ والعقَباتُ التي صادفاها حتى ارتبطَ مصيرُ كلّ منهما بمصير الآخر .

وأخذ آيفنهو يرتقي في مراتب الشرف والسيادة إلى جانب الملك ريتشرد قلب الأسد ولقد كان جديراً به أن يصل إلى الأوج لولا أن ذلك الملكَ العظيم مات قبل الأوان : لقد لقيَ مَصْرَعَهُ في حصارِ قصرِ شالوس بالقرب من ليموج .

انتهى

الفهرس



المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

دار العلم للملايين
بيروت